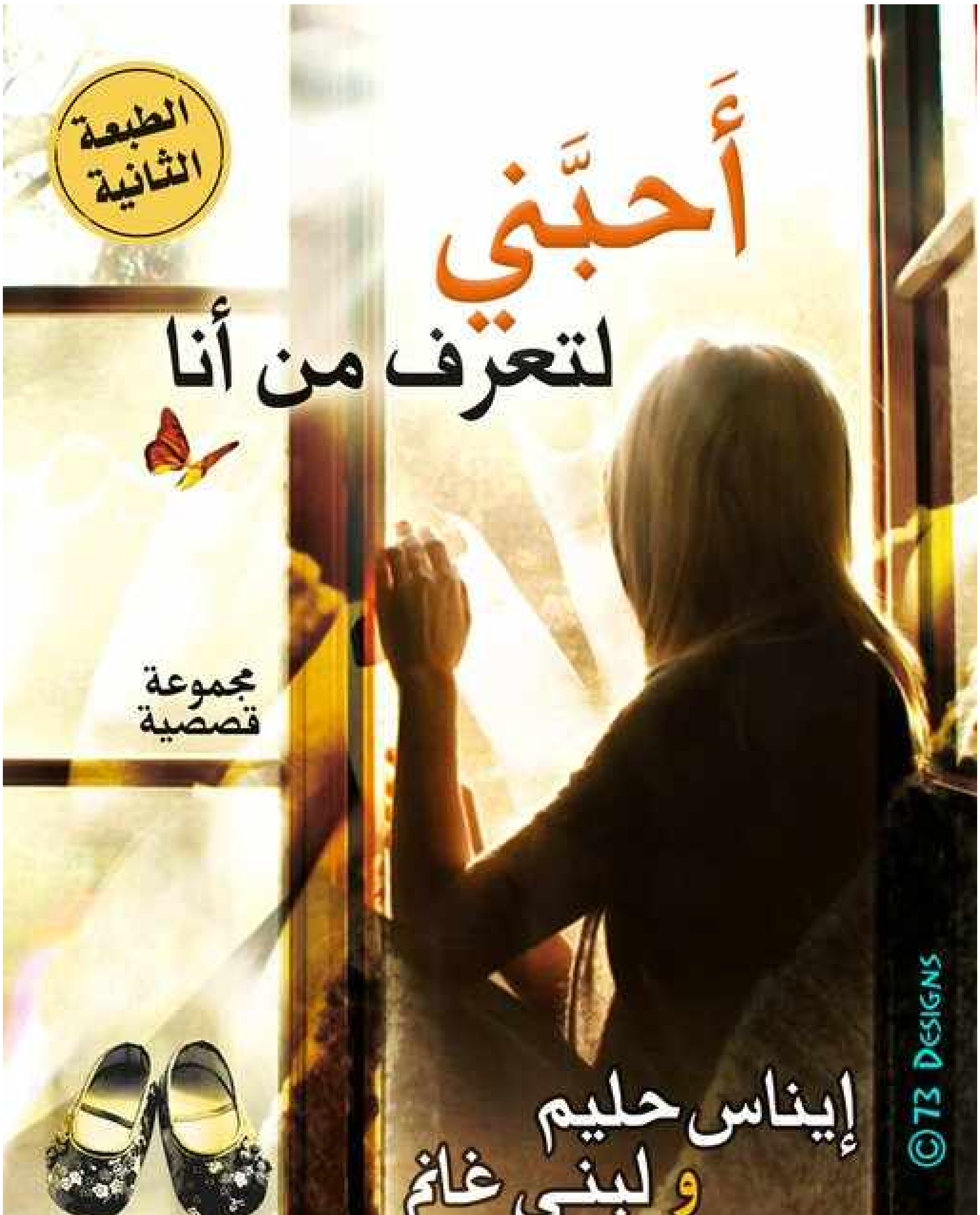
الطبعة
الثانية
أَحبَّني
لتعرف من أنا
مجموعة
قصصية
إيناس حليم
و لبنى غانم
© 73 Designs
دار المصري للنشر

أحبَّني لتعرف من أنا...

لبنى غانم & إيناس حليم

الطبعة الأولى ٢٠١٠

حقوق النشر محفوظة

دار المصري للنشر والتوزيع

٤ش مسجد الرحمن من أحمد زكي، دار السلام، القاهرة

ت: ٠١٨٢٣٤٣٨٧٩

Email: elmasrypublishing@gmail.com

المدير العام: يوسف ناصف

الغلاف: حاتم عرفة

التدقيق اللغوي: مجموعة ضمة

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٢٤٢٦٠

أحبَّني لتعرف من أنا...

مجموعة قصصية

لـ

لبنى غانم & إيناس حليم

إهداء

إلى..

من اتَّسعت دائرة اهتماماته، لتشمل كل العالم...

وتشملنا...

إلى الكاتب، والأخ، والصديق/ إسلام مصباح

لبنى غانم & إيناس حليم

قالوا عن المجموعة:

للمرة الأولى تقع بين يدي مجموعة قصصية ثمرة تعاون بين كاتبتين، جمعتهما الصداقة والميول الأدبية المشتركة. المدهش فيها متانة اللغة إلى جانب إتقان الفن القصصي والتنوع الفكري وصفوة القول، فإن التجربة تستحق الإشادة والثناء.

الكاتب السوري نزار بهاء الدين الزين

في قصص إيناس حليم.. تخلصت لغتها الشاعرة من رتابة المشاهد الرومانتيكية ونمطية الأفكار والمشاعر الحالمة الخالية من العمق.. إيناس تتحدث عن أناس يعيشون أشكال معاناة متعددة.
أما لبنى غانم فتتخذ قصصها الثيمات التقليدية للفعل الرومانسي مع توافر العذوبة فيها، وبها تدغدغ حواس من هم في حاجة لدفقه في ظل واقع قاس حولنا، وتبدأ العامية في الظهور عبر أحداث يمكن تسمية أغلبها بأحداث الفرص الضائعة أو القليلة أو التي انتهت.

الكاتب والصحفي حسن الحلوجي

الدستور ٣ ابريل ٢٠١٠

إنها مشاعر كل امرأة أرادت التعبير عنها بالكلمات فخذلتها، ولكن مشاعر لبنى وإيناس لم تخذلهما وقررتا نقل صور يومية من حياة "النص الحلو" لمجتمعنا الشرقي، الابنة، الأخت، الحبيبة، الزوجة، الأم "تصور أدبي عصري لحياتها في البيت المصري".

الصحفية مروة مظلوم

روز اليوسف ٢ يوليو ٢٠١٠

"هو الباركيه مِتعشّقْ كده ليه!! ؟"...

تُباغتها الفكرة...

- كم هو ساحرُ أن تفعل أشياءً لا يُطيقها أبواك-...

إيناس حليم

الحكاية الأولى...

كوخٌ وبسمة وقدحُ شاي ...تعطر بأنفاسه

كان غافيًا كالملائكة على كرسي هزاز، لا يبرح مكانه... كانت هي ممدَّدة على الأرض، تتوسَّد بعض القشِّ الأصفر، وتستند برأسها على صخرة قاسية بعض الشيء...

في كوخ صغير، خالٍ إلَّا من ذلك الكرسي، مذياع قديم يَصدر منه صوت فيروز نقيًا كبلورة، وقدحُ شاي اعتاد أن يحضِّره لها كل ليلة، معطَّرًا ببعض من النعناع، وبعض من أنفاسه...

"بس هلَّا ما بِتذَكر شكل وِجّك، بس بِذكر أديش كان أليف...

بعدو أليف؟ بَعدك ظريف؟ بعدو بيعنيلك مِتلي الخريف؟؟"

استيقظت روحاهما إثر الصَّوت والعطر... خرجا مسرعيْن ليُقبلا نسماتٍ – ظنّا أنها ستستمر أكثر من ذلك –

كان لديهما حلم مشترك – مستحيل- بالطيران، ولِعلمهما باستحالته، اكتفيا بالسَّير قليلا على ذلك اللَّوح الزُّجاجي الذي يغطي البحر على اتساعه. كان دائم النظر إلى الشَّمس، وكانت دائمة النَّظر إلى ذلك السَّمك الملون تحتها...

كانت هنالك لؤلؤة تخبرها كل يوم أنها لها، لكنها لم تستطع يومًا أن تمتلكها...

لم تكن تعلم حينها أنَّ للزُّجاج أيضًا سرطان، فقط مربعٌ صغيرٌ تحت قدميها به شرخين أو أكثر، كان كفيلا بأن تتراجع، وتنسى أمر السَّمك الملون، واللؤلؤة...

لم تجرؤ أن تطلب منه ذلك، لكنه كان يعلم منذ البداية...

عادا إلى الشاطئ بحركات بهلوانية، وبسمة مرحة... حاولا التمسُّك بها قدر المستطاع.

ربط عينيها بشريط حريري أخضر، وطلب أن تنتظر دقيقة، لم يكن بحاجة إلى حفرة عميقة؛ كي يصل إلى الكنز، علبة "ماكينتوش" زاهية مستديرة، كانت كافية جدًا لاستمرار السعادة أسبوعًا آخر.

التهمت ألوانها بفرحة، تناولت تلك المغلَّفة "بسولوفانة " بنفسجية برَّاقة، وركضت بها إلى أقرب نخلة، سَعفةٌ تدلَّت في طريقها استطاعت أن تصوغ منها ضفيرة قوية، تسلَّقتها إلى القمة، لم تستبدل حينها التمر بالشوكولاتة، فقط اكتفت بالاستمتاع بالشوكولاتة حتى اكتشفت أنها بالبندق.

قفزت فوق النخلات بسهولة، ظنت لبرهة أنها تطير، نسرٌ صغيرٌ حلّق فوق رأسها مباشرة،

لم تخف، ظلت متمسِّكة بالسولوفانة البنفسجية حتى النهاية.. سقطت –السولوفانة–

حزنت قليلاً، وتابعت الطريق

عنه...

كان لا يزال هناك، يُفكر في اللَّحاق بها، ملتقطًا أخرى بطعم الفراولة، هي لم تحب يومًا الفراولة، ولم تحبه، لكنها على الأرجح كانت تحتاج لأنفاسه؛ كي تعطِّر بها قدح شاي ترتشفه كل مساء...

"بووووووووووووم"

سقطت...

تتناوب على رأسها عشراتُ التمرات، كانت السَّقطة كافية جدًا كي تستيقظ لتجده غافيًا على كرسي هزَّاز، لا يبرح مكانه، وتجد نفسها ممدَّدة على الأرض، تتوسَّد بعض القشِّ الأصفر، وتستند برأسها على صخرة قاسية بعض الشيء، وفيروز لا تزال تُغني، له وللخريف...

كان لها كوخٌ حميم، وبسمة مرحة، وقدح شاي تعطَّر بأنفاسه، وكانت له لمحة حُلوة، قال أنه سيحزن إذا ما تلاشت...

لم تكن متأكدة من مدى صدقه، ولم يكن مُهمًا مدى صدقها، المهم أنه كان...

وأنها كانت...

الحكاية الثَّانية...

احتفال بحذاء وردي اللَّون...

مقاسه "zero"

خرجت من باب العيادة تتحسَّس بطنها، في محاولة أموميَّة لا إراديَّة؛ لاحتواء كامل أحشائها بكامل راحتيها، بين عينين اغرورقت بالدَّمع، ووجهٍ تعلوه ابتسامة، كانت جميع قسماتها تفضح فرحة ما، انتظرتها طويلًا...عشرسنوات، قضتها في صراع نفسي بين حبها لزوجها الفاقد للقدرة على الانجاب، الذي لم تعشق يوما سواه، وبين عشقها الفطري للأمومة... عشر سنوات، قضتها بين عيادات أكبر الأطباء داخل البلاد وخارجها، وبين تلك الوصفات الغريبة للعطارين، وعدة تجارب فاشلة لطريقة الحمل بالأنابيب... عشر سنوات، بين شعور بالأمل، وبين عدة محاولات للتمسك بالأمل...كانت تتعلق بكل شيء، وأي شيء، لم تترك بابًا إلَّا طرقته، بما فيهم تلك الاعلانات التلفزيونية العقيمة التي تعدك بثقة حمقاء بوداع العقم...

اليوم، بعد كل الجحيم، وكل عذابات السنين، تأتيها سعادة الدنيا في بضع كلمات انجليزية، كُتبت على ورقة بيضاء، تُشير إلى نتيجة تحليل حمل جلست تنتظره منذ ساعتين، ومنذ سنوات، بجوارالكلمات علامة صغيرة جدًّا تعني "إيجابي"...

أخذتها عجلات قدميها في نشوى إلى إحدى محلات بيع مستلزمات الأطفال، شعرت برغبة جامحة في شراء كل الملابس، والأحذية، والألعاب، والسرائر الهزَّازة... كل الأشياء التي تخصُّ الطفل... تسلَّل إلى عقلها شعور بالأنانية، فقررت تأجيل سعادة شراء تلك الأغراض الصغيرة؛ لتتشارك بها مع زوجها الذي ينتظِر ذلك الإحساس منذ زمن، لكنها لم تستطع أن تنحي ناظريها بعيدًا عن تلك الأرفف الخشبية المرصوص عليها بمرح، بعض الأحذية الصغيرة جدًا التي تتأرجح ألوانها بين درجات الأزرق، ودرجات اللَّون الوردي، وتتأرجح مقاساتها ما بين الخمسة وال "zero"... انتقت أصغرهم وأزهاهم، اختارت اللَّون الوردي قناعة منها بأن ما تحمله بين أحشائها ستكون صبيَّة أو ربما تمنت ذلك...

خرجت من محل الأطفال حاملة معها حبها وابتسامتها، وحذاء وردي اللَّون مقاسه "zero"...

اتجهت في خطوات شبه راقصة إلى محل الزهور، رتبت بنفسها باقة كبيرة من البنفسج، تتخللها بعض قرنفلات بيضاء لم تتفتح بعد، ومنها إلى أفخر محلات بيع الحلوى؛ لتنتقي أكبر تورتة بطعم الشوكولاتة، والكثير من البالونات الملونة، والشموع المعطرة... اختارت كل شيء بعناية شديدة؛ لتكون حفلتها اليوم في روعة وخصوصية المناسبة.

لحظة خروجها من الباب الزُّجاجي ذي الأجراس المعلقة، تعثرت بصديقتها وجارتها "حبيبة"، تلك الشابة الجميلة التي تحوَّلت إلى أرملة في سن صغيرة.

- "حبيبة" إيه الصدفة الحلوة دي، جيا تشتري حاجة!؟؟

في توتر بدا جليًا على وجهها:

- ازيك يا سلمى،أناااا... أص أصل النهاردة عيد ميلادي و...
- بجد!! كل سنة وإنتِ طيبة، طيب كده متعزمنيش يا وحشة!؟
- هااا، معلش أصللل...
- عموما كده كده مكنتش هقدر آجي.
- الحمد لله، قصدي قصدي ليه بس؟ صحيح انتِ جيا هنا ليه؟ وإيه اللي في إيدك ده؟؟

لم تجب سلمى، ليس لخبثٍ ما، أو خوفًا من الحسد؛ لكن لأن زوجها هو أول من يجب أن يعلم بالخبر.

****

على مائدتها الصغيرة، جهَّزت عشاءً فاخرًا، إلى جواره وضعت زهورها البنفسجية، وتورتة الشوكولاتة.

أطفأت كل الأنوار، وأضاءت الشموع، وضعت في المنتصف طبق "سرفيس" دائري كبير مغطى بغطاء معدني براق، وتحت الغطاء وضعت بحبٍّ حذاءً صغيرًا، وردي اللَّون مقاسه "zero"...

ارتدت أجمل فساتينها، وعقصت شعرها بفراشة كبيرة لامعة، ثم عطَّرت نفسها ودنياها بعطر الياسمين الذي يحبه...
جلست على أريكتها الدافئة، تنتظر في لهفة تلك النظرة السعيدة التي سوف تراها في عينيه فور سماعه الخبر.
في ذلك الوقت، تسللت إلى أذنيها وقع موسيقى إسبانية راقصة، تألفها جيدًا، تلك الموسيقى التي أحبتها يومًا؛ تأثرًا بولع زوجها بها، كان وقعها يزداد عُلوًّا كلما اقتربت من النافذة.
أزاحت ستائرها ببطء؛ لترى جارتها الأرملة الجميلة، ترتدي فستانًا أسودًا منفوشٌ قليلاً، أكمامه طويلة، وظهره شبه مكشوف.
كانت ترقص على تلك الأنغام الإسبانية بجموح واضح، شعرها منثور يكاد يكسو الفضاء، وقدماها حافيتان تمامًا، تضرب الأرض بكعبيها في عنف وبدائية، ثم ترفعهما برقة تمتد لأطراف أصابعها.
تعجبت سلمى من تلك الطقوس الغريبة في الاحتفال بعيد الميلاد، ضحكت، ثم ساورها شعور بالخجل من تلك المحاولة السيئة؛ لاقتحام خصوصيات الغير.
بدأت في اسدال الستائر ببطء كما فتحتها، توقفت فجأة حين لاحظت اقتراب ظل تألفه جيدًا، لم تستطع كبح جماح فضولها، وظلت ترقب من بعيد.
لمحت ظهرًا عريضًا لرجل يقترب من "حبيبة" يقترب جدًا، يحتضنها من الخلف، ثم يُخرج من جيب سترته عقدًا لؤلؤ، تألفه أيضًا، يطوق به رقبتها ويُقبلها، يُشاركها الرقصة، فيستدير ببطء ذابح، لتتسلل ملامحه رويدًا عبر ستائره وستائرها...
تراه...
إنه هو، زوجها وحبيبها، والد طفلتها المنتظرة...
في لحظة...
تشعر أن العالم خلا من أي شيء إلَّا من سكين حاد،غرسه أحدهم في أعمق أعماق قلبها؛ كي ينزف طول العمر، وتفترش دماؤه حلبة رقص كبيرة، تصلح جيدًا لحمل هراءات إسبانية، يقتحمها شعور بالمرارة، تتذكر كل الماضي، فلا تستوعب الحاضر، ولا ترى أدنى بصيصٍ للمستقبل.
تَدمع... تختنق... تبكي...
ثم تبكي كثيرًا...
تتجه بلا أدنى اتزان إلى المائدة، تُحطم كل الصُّحون، وتدفع بالورود والشموع إلى الأرض، ثم تتجه في هلع إلى الباب،

مُخلفة وراءها جدران تَبكيها، ومظاهر احتفال أبى أن يبدأ، وحذاء وحيد،

كانورديَّ اللَّون...

مقاسه "zero"...

الحكاية الثَّالثة...

نصف وجه...

يطلب منها أحدهم تبديل الكراسي؛ ليجلس بجانب زوجته، ترفض باعتذار، ينظر إليها بوجه عابس، لكنه لا يطيل النظر...

قُرصٌ دامي يهرع من الأفق إلى صفحة مياه النيل، يُقبلها، ويستهويه طراوتها...

تراه من النافذة، وتتمنى لو أنها مكانه.

تفيق من شرودها على صوت "الكُمسري" يطلب فحص التذاكر،

تعطيه التذكرة بأطراف أصابعها دون أن تنظر إلى وجهه، يتعجب من عجرفتها، يمنحها ملامح صارمة، لكنه لا يطيل النظر...

مساحات خضراء امتدادها أقصى من امتداد البصر، إلى ذلك البراح الذي يتحرك أمامها عبر النافذة، تُطيل سلمى النظر، تتمنى أن تقفز وتلعب بين العشب، والذرة، والطلمبات، وشجر التوت...

تتخيل نفسها شجرة توت، يريحها ذلك الإحساس بالإتساع.

صوت دافئ يأتيها من اليسار، يأخذها من ذلك العالم الأخضر، من البراح:

- لو سمحتِ، الكرسي اللي جنب حضرتك فاضي؟؟

تومئ برأسها موافقة.

- طيب ممكن أقعد؟؟

تُكرر الإيماءة.

ترمقه بطرف عينها اليسرى، نظراته إليها تُقلقها، تُزعجها، ولا تزعجها...

كم رآها جميلة...

رغم أنه لم ير سوى نصف وجهها الأيسر؛ لشدة انحنائها يمينًا نحو النافذة.

بياضٌ وضّاء، عين كعين المهر، شعر يكاد سواده يحتل كيانه، ويحتل العالم، كم رآها جميلة...

ظل لدقائق يتأمل ذلك النصف القريب من وجهها، ويُسبح الخلاق،

حاول بأدب أن يتجاذب معها أطراف الحديث:

- هو حضرتك نازلة فين؟

اقشعر جسدها من بغتة السؤال، رغم طبيعته، ردت بصوت خافت جدًا:

- إسكندرية

قطب حاجبيه من اختصار الرد، وخشي أن يظهر بمظهر الفضولي المتطفل، لكنه ومن فرط إعجابه قرر ألّا يستسلم، انجذب إليها حقًا، في دقائق قليلة تخيل بيتًا، وولدًا، وحياة...

سألها بمباشرة غير متوقعة:

- هو حضرتك مرتبطة؟؟

بُركـان...

بُركان، اجتاح جسدها ونفسها في تلك اللحظة...
بركان، لم يعلم أسباب ومواقيت انفجاره سواها...
من فيض الارتباك، سقط "الموبايل" من يدها، ومن فيض الارتباك انحنت؛ لتلتقطه...
فانحنى بدوره إلى الأرض؛ ليناولها إياه...
تقابل الوجهان، أخيرًا، رأى نصف وجهها المجهول.
في لحظة توقفت فيها عقارب الزمن...

بُهتَ الوسيم...
" حين تُباغتك الصدمة، تختلف ردود الأفعال باختلاف الأشخاص، ونوع الصدمة..."
بوجه تغزوه ملامح الدهشة والارتباك، ولمدة سبع ثوان، تأملها،
لكنه...
لم يُطِل النظر...

تألمت، رفعت جسدها المحني عن الأرض، وأعادت نظرتها إلى النافذة، إلى البراح...
مرت سنة على تلك الحادثة المشؤومة...
مازالت صورة ذلك المجنون تلاحقها في مناماتها ويقظتها.
في شارع شبه هادئ... يجلس رجل بدين ذو رائحة كريهة، شعره كث كثيف، منظره يؤكد اكتظاظًا بالحشرات، يُطلقه ولحيته للهواء، حافي القدمين، يرتدي من الملابس ما يكشف أكثر مما يستر، يستند بظهره على جذع شجرة وحيدة، ويمسك بكلتا يديه زجاجة صغيرة،
عيناه لا تُخبر سوى شيء واحد: " أنا أكره الدنيا"
فجأة، وقف البدين وقفة عصماء للسَّماء، احساسٌ حارق يُطفىء ضحكتها إلى الأبد.
صدمة...
ألمٌ يفوق كل أشكال الألم...
عرفت ما بداخل الزجاجة...
"مية نار"
ألقاها المجنون عشوائيًا في الهواء، في لحظة ازداد فيها نقمه على الدنيا، لتعيش ما تبقى من عمرها، بوجه نصف محترق...

****

"علاجها صعب أوي، وهياخد وقت طويل، عمليات التجميل مش هترجعها زي الأول..."
هكذا تذكرت نبرة الطبيب، وهو يخبرها بأنه حرق من الدرجة الثَّالثة...

ابتسامة ساخرة كبيرة، تتلقفها النافذة، ويتلقفها بدوره القدر...

مأذنة طويلة تعلو جامعًا صغيرًا في وسط اللوحة الخضراء، تراها سلمى بوضوح حين يُهدِّئ القطار من سرعته، تتذكر كلمات أمها بأنَّ الدعوة في السفر مستجابة، تُفكر...

بماذا تدعو الله!!

إنها تحبه، ترضى بأقداره، وتعلم جليًا أنه سيكرمها في النهاية،

ولكن بماذا تدعوه!! ماذا تتمنى!!

نظرت طويلاً إلى السَّماء...

لم تتمن عودة الأصدقاء،

لقد خجلوا يومًا من السير بجوار فتاة، بوجه نصف محترق.

لم تتمن زوجًا يُقبل خدها الأيسر، ويضع وجهه في الأرض، كلما مرَّ بنصفها الأيمن.

لم تتمن أن تزول الغصَّة من قلب أبويها، لعلمها بصعوبة الأمنية.

لم تتمن أشياء كثيرة، كانت بين يديها منذ سنة مضت.

ولم تتمن تغيير القدر، لكنها تمنت في قرارة نفسها، لو أن أحدًا فقط، فقط...

أطال النظر...

الحكاية الرَّابعة...

أن تكون حُرًّا...

تستيقظ من فراشك كعادتك في الرابعة والنصف عصرًا، تزيح الغطاء عنك في هلع، تتجه بسرعة ملفتة إلى نوافذ غرفتك، تتأكد من إحكام غلقها جميعًا، وإسدال ستائرها الأرجوانية القاتمة من قماش القطيفة.

فقط شعاع واحد، استطاع أن يتسلل عبرهم إلى أرض الغرفة، ليكون خطًا طوليًا من ضوء خافت، انعكس جزء منه في مرآتك؛ ليريك مدى شحوب وجهك، ودمامة قسماتك.
شعاعٌ خافتٌ جدًا، لكنك تحاول الابتعاد عنه قدر المستطاع.
تقف أمامها لمدة الساعة والنصف، تتأمل تلك البشرة ناصعة البياض كما الورقة، ذلك الشَّعر البرتقالي المائل إلى الصَّفار، ورموشك التي اصطبغت بنفس اللون تقريبًا؛ لتصوغ إطارًا باهتًا لعينين زرقاوين، خاليتين من أي معنى.
تمتد أصابعك إلى وجه المرآة محاولة التعرف على ملامحك، يتملكك شعور غريب بالانفصام، تتقمص دور صبي غجري أسمر، ذي شعر فاحم ورموش كثيفة، تزهو بها زُرقة عينيك، أمهق...
تشعر بالمرارة كلما تذكرت تلك الكلمة التي نعتوكَ بها منذ الصغر، تتذكر أقرانك في المدرسة ذات الفترة المسائية، حيث كنت تنتظر الغروب؛ كي تذهب إليها.
تتذكر تفاصيل أول يوم لك في الفصل، تتذكر تلك النظرات، والهمسات، والضحكات المكتومة، التي لا تُخبر إلَّا بأنك جسم غريب، دخل عالمًا لا يستوعب كثيرًا الغرباء...
ترضى أحيانًا، تحزن في معظم الأحيان، تمقتُ ذلك الميلانين الذي تفتقد إليه وراثيًا بشكل مبالغ فيه، يجعلك تهلع من مجرد فكرة الإحساس بالشَّمس.
مسكينٌ أنتَ...
تُقر بأنَّ معاناتك النفسية لا يتفهمها سواك، تتعذب بتلك الروح المغلفة بالإحساس بالنقص، تتخذ من الشَّمس عدوًّا، ومن الليل حياة، ومن الظل مأوى وسجنًا...
مسكينٌ أنتَ...
أسيرٌ لخوفك، وضبابات مرآتك، وحلم قديم باحتضان النور.
تقفز إلى خاطرتك أيضًا أيامك الجامعية، تجنبك لحضور المحاضرات النَّهارية، واكتفاءك بتصويرها من الزملاء.
الزملاء...
مشكلة عانيتَ منها كثيرًا، رُبما بفضلهم، ورُبما بفضلك...
تنتزع نفسك عُنوة من أغوار شرودك، وتأملاتك، وذكرياتك، تبتعد ببطء عن المرآة، تُضيء أنوارك "النيون"، وتغلَق عينيك لبرهة؛ إثر انتزاعها من الظلام، تتجه إلى الحمَّام، ثم تخرج لترتدي ملابسك الأنيقة، وتترك جدران المنزل الموحش بأفكارك؛ كي تبدأ مساء يوم جديد.
تسير منكمشًا بحذاء الحائط؛ حتى تصل إلى ذلك الباب الزُّجاجي للفندق الذي تعمل به كمحاسب محترف – يشهدون لك بذلك رغم تعجُّبهم لانطوائيتك– يتسلل شدوٌ ملائكيٌ جديدُ الوقع على سمعك، يُخبرك أحد العاملين أنها "السوبرانو" الجديدة من معهد الموسيقى.
تتجه ببطئ إلى صالة الاستقبال، تراها...
جميلة، خمرية البشرة، شعرها كستنائي طويل منسدل على كتفيها، وممتد إلى نصف ظهرها تقريبًا، ترتدي فستانًا أسودًا مكشوف الذراعين، وفي أذنيها وضعت قرطًا صغيرًا لفراشة فضية، مطلوقة الأجنحة.
تقف في المنتصف، وحولها مجموعة من العازفين، يرتدون أيضًا بَدلات سوداء أنيقة، ويصوغون مع ملائكية صوتها لحنًا استطاع أن يُعطر المكان، ويستثير كل من حوله، كما استثارك.
تُنهي فقرتها فيتبعها تصفيق حاد، يتَّجه أحدهم إليها، ويقترب منها في ثقة، تلمحها أنت من بعيد، تَراه يُمسك ذراعها بحنو واضح، تمشي معه باستسلام تام.
تنظر إليها في صمت...
تتسلل إلى مشاعرك نشوة حذرة، تجعلك تسير خلفها، فتلمحها تتجه إلى الغرفة المخصَّصة لتغيير

الملابس، تنتابك رغبة قوية بالتخلي عن حذرك، والاستعداد لتحمل تلك النظرة التي تمقتها منذ زمن.
فقط نظرة منها تكفيك، وإن آلت بعدها إلى الأرض.
تقف خلفها مباشرة، خائفًا، مرتبكًا، مُستكينًا...
تشعر هي بحرارة الأنفاس خلفها، فتستدير لتكتشف كُنهها،
تستسلم أنت لعينيها، ولأول مرة في حياتك، لا تؤول نظرة أحدهم بعدك إلى الأرض، أو أنها في الواقع لا تؤول إلى شيء...

ضريرة...
نعم، ضريرة...
ولكنها تبتسم، تحيا في الليل الدائم الذي تمقته أنت، ورغم ذلك مازالت تبتسم.
منذ ذلك اليوم، وأنت تجوب معها كل الشوارع، النوادي، المسارح، تُمسك بيديها، تسير في منتصف الطرقات، تبتعد كل البعد عن الأركان، وتستمتع معها بالمساء بكل نجومه، وأقماره، ونسماته...
تستمتع كثيرًا، تُحبها كثيرًا، تشعر معها بالاستغناء عن الأصدقاء، وعن العالم، وعن الشَّمس.
ولأول مرة منذ سنوات، تبتسم من كل قلبك، ولأول مرة منذ سنوات، تشعر بمعنى جديدًا...
لأن تكون حُرًّا.

الحكاية الخامسة...

"لؤلؤة سوداء"

علاقتي بكِ، كعلاقة طفلٍ صغير شغوفٍ بحلوى "المارشيميلو"، بالطبع يصعبُ عليكِ تفهم ذلك؛ لأنكِ لم تكوني يومًا كبقية الأطفال.

عندما قفزنا للمرة الأولى فوق سور "الفيلا"، ذات الحديقة المربعة الممتلئة بزهور "عباد الشمس" الطويلة جدًا، طلبتِ مني أن أنزع لكِ أطولها، وأن أستبدل باسمها "تباع الشمس" كما تعلمتِ في حصة الدين -أن العبودية لله وحده-

كانت المرة الأولى، التي يخبرك فيها أحد أنَّ هنالك زهرات تلد اللبْ، حينها انتهزتُ الفرصة؛ كي أخبرك أيضًا بأنَّ بذور اللبْ تتساقط من زهرتها، إذا ما رأت قبلة بِكر بين نفسٍ طاهرة وأخرى أكثر طُهرًا، وأنَّ اللؤلؤة السوداء ستجدينها يومًا – صُدفة - بداخل حبة "أم الخلول" فضية بحجم أذنك، أو مُعلقة بذيل قنديل بحرٍ لطيف، يلدغك مرة واحدة، وبعدها يرحل.

ولأنني كنتُ دومًا بارعًا في تحويل الحواديت المملَّة إلى أخرى ممتعة، ولأنكِ الأكثر طُهرًا في هذا العالم، صدَّقتها.

أصبحتِ تشترين كل يوم سلة "أم الخلول" كبيرة، تحملينها إلى آخر صخور الشاطئ، وتفرشينها قرب البحر، تتحملين لدغات القناديل واحدة تلو الأخرى، وتبحثين بين صدفاتك عن تلك اللؤلؤة الوهمية.

تعودين لي في المساء عند سور "الفيلا" لنُكرر قفزتنا اليومية إلى الحديقة، تقفين أسفل أطول زهرة تباع شمس، وتحاولين لمس وجهها الإسفنجي الأصفر، تخونك قامتك القصيرة –كالعادة- فتكتفين بطبع قبلة صغيرة على خدي الأسمر الجاف، قبلة بطعم "المارشيميلو".

لم أستطع أبدًا الاحتفاظ بنكهتها، ولم تكفِ أنتِ يومًا عن انتظار سقوط اللبْ...

الحكاية السَّادسة...

وثبًا نحو الأحلام...

بعد عدة محاولات فاشلة، للبحث عن ملابس تلائمها في تلك المحلات التجارية السخيفة، قررت الجلوس في إحدى الكافيتيريات التي لا تطؤها الكثير من الأقدام، والتي تتميز بإضفاء هالة فيروزية حالمة إلى المكان بدلًا من الجو المعتاد لقنوات الأغاني الفضائية.

تبحث بناظريها عن طاولات الأركان، تنتقي أقصرها، وأبعدها...

تثِبُ وثبتها الاحترافية إلى الكرسي، وتجلس ودفترها الصغير ذا النقوش الملوَّنة، وقلمها الرَّصاص، تبحث بعينيها عمَّن يستحق أن تستلهم منه لوحتها الصغيرة هذا اليوم.

تنادي أطول النادلين في المكان، وتطلب معكرونة "إسباجيتي" بصوص المشروم مع زيادة أكثر للجبنة، إنها تحب "الإسباجيتي" كثيرًا، كما تستهويها المبالغة في الأشياء.

في طريقة شديدة الخصوصية لأكلها، تُبعد الشوكة بشكل ملحوظ عن فمها، وتحاول أن تلتقط وحدات "الإسباجيتي" بأسنانها، ثم تسحبها بشفتيها في استمتاع طفولي مضحك.

ترقب الكراسي ومن عليها، في محاولة لصنع جوٍّ حميمي زائف للمكان.

تلمح رجلًا يجلس وجهازه "اللاب توب" فقط، منهمكًا مع أزراره،

تتعجَّب من اختيار بعض الناس للوحدة، تفكر أنها لو محلهم، لما اختارت الجلوس وحدها في مكان عام أبدًا.

يجذبها منظر آخر، لشاب وفتاة يمارسان طقوس المراهقة الحُلوة، يُمسك يدها، تخجل، يضغط بحنو أكثر، فتبتسم ويشتركان في الشرب من كوب واحد...

ترقبهما هي في خبث،

وتحلم،

لكنها لا ترسمهم...

إنها لا تعلم لماذا تلتفت سوى للرِّجال، كأنها تتجنب النظر عمدًا إلى كل النِّساء، تبحث عن أطولهم قامة، وأكبرهم مقاسًا للحذاء،

هم فقط من يستهويها أن ترسمهم.

تُنهي تلذذها بصحن المعكرونة، وتُلحقه بطلب لمشروبها المفضل "كابوتشينو هازلنَت"، هكذا تحب أن تقولها بلغة انجليزية أقرب إلى التصنُّع.

تشُب بجسدها النحيل؛ لتلتقط عُلبة الفخار المرتب فيها أكياس السكر بشكل طولي، تفضِّل السكر البني على الأبيض، تضع كمية غير منطقية في فنجانها الكبير نسبيًا.

أخبرتها أمها ذات يوم، أنَّ السكر البني مستخلص من أجود أنواع قصب السكر، وأكثرهم طولًا، لم تهتم كثيرًا بمعرفة صحة المعلومة.

اكتفت بارتشاف فنجانها رويدًا رويدًا، والانتشاء بتلك النكهة السَّاحرة للبندق، وذلك الإحساس الحُلو لشاربٍ من رغوة يكسو شفتيها.

يلمحها هو من فوق كرسيه البعيد، تتسلل نظرات ضاحكة من خلف نظارته الزُّجاجية على شاربها الرغوي، تجذبه طريقتها الغريبة في أكل "الإسباجيتي"، وحركاتها المشتَّتة بشكل ملحوظ، رغم تركيز قلمها الدائم في دفترها الصغير.

في ذلك الدفتر، كانت ترسم ظلالًا سوداء طويلة لهيئات تحسبها رجالًا، وترسم لها أقدامًا كبيرة جدًا، تكتفي فقط بالظلال والأحذية، تختلف أشكالًا وألوانًا، لكنها تشترك في شيء واحد:

حجمها الكبير.

تلاحظ نظراته المتسللة، وتؤكد لنفسها أنها إحدى نظرات الإعجاب التي تتمناها من حين لآخر، تفشل في تحديد لون عينيه، لكنها تنجح في رسم ظله.

"عندي ثقة فيك، عندي أمل فيك، بيكفي شو بدك مني أكتر بعد فيك، عندي حلم فيـك..."

تشدو فيروز بينهم في الهواء، يبتسم إهداءً لها، تبادله الابتسامة، وتزداد انتشاءً...

يُخرج من محفظته الأنيقة ورقة عشوائية صغيرة، ويطلب من النادل قلمًا، يكتب بعض كلمات، يتردَّد، يُكرمشها، ويلتقط غيرها، ويتردَّد أيضًا، يُحاول الاستلهام من تلك الهالة الفيروزية حوله، ومن عينيها، يكتب فقط كلمتان " أنتِ حُلمي".

يرفع رأسه مناديًا لنادله الخدوم، يقول له في همس :

" من فضلك، ممكن تدي الورقة دي للبنت اللي قاعدة هناك"

ينظر لإصبعه السبابة، ليفاجأ أنه يشير إلى الفراغ.

يقف...

يمسح بعينيه المكان، يتلاشى من أمامه حُلمٌ كان يرسمه فوق دفترها،

غاضبًا متعجبًا، يضع يده اليمنى فوق جبهته، والأخرى في جيب بنطاله

فجأة...

يلمح أمامه ظلًّا قصيرًا يقترب، يشعر بيد صغيرة تسحبه من بنطاله بحركة مليقة:

"كم يكره ذلك المزاح السخيف للأطفال"

يهز قدمه اليسرى بقوة، يلاحظ ازديادًا في التمسك، ينظر إلى الأسفل، ثم إلى الأسفل جدًا،

يُحملق، يُصعق، يَرتبك،

ويصمت...

إنها هي،

إنه الحُلم، يتجسد في ذلك الوجه الناعم، وذلك الشعر الكستنائي،
وجسد طفلة...
تصيبه الصدمة بحالة ذهول لحظية، لا ينبت خلالها ببنت شفة، يسمع صوتًا خافتًا جدًا يصله صداه من الأسفل، يضطر إلى الانحناء كثيرًا؛ ليسمعه:
- ممكن تشيلني؟؟
- نعم !!!
- شيلني عايزة أقولك حاجة...
حملها طويل القامة، كما يحمل بنات أخواته الصغيرات، قرَّبت ثغرها الصغير من أذنه،همست في خبث:

" حتى الأقزام يا عزيزي، يستطيعون الوَثب إلى الأحلام"

الحكاية السَّابعة...

رُزنامة

لم تكن تلك المعلقة بين الجفن والبكاء، هي أحد أسباب حُزنها، كما لم يكن اختفاء زهرة الليمون من المدينة، هو السبب الرئيسي لوجع الفراشة.

على سرير موازٍ لنافذة غرفتها، تجلس في مكانها؛ لتَشم الضوء الذي يخاوي تلك الوسادة، تُحصي ذراته الحائمة حولها في دوائر مجوفة، بداخلها دوائر مجوفة، بداخلها دوائر أكثر تجويفًا.

على الطرف، تُمسك بجهازها "اللاب توب"، وتبدأ بتحميل آخر حلقات مسلسلها التركي المفضل، هي تعلم أنها شاهدتها بالأمس ولكن، ماذا يضيرها لو عاشت في الحكاية ليوم آخر؟؟

في الحواديت كل شيء فاتن، كل الألوان زاهية بالقدر الذي تحسبها اصطناعية، وكل النهايات مألوفة رغم غموض القصة.

رُزنامتها الكائنة بوقارٍ على جدار غرفتها، تُخبرها كل يوم أنَّ ثلاثين ليس رقمها المفضَّل، وأنَّ خزانتها مازالت تستوعب فستانًا، لا يُشبه فساتينها.

ترنو ببصرها صوب كل الاتجاهات، تحاول حبس فضاءاتها في زجاجة عطر قديمة، تفشل، فترنو ببصرها صوب الرزنامة.

باقي من الزمن دقائق–

تُلقي بجنانها على أرض الغرفة، وتمدُّ أصابعها؛ لتلتقط حقيبتها الجلدية. تُخرج جديلة ضجرٍ صاغت بالأمس جزءًا منها، تُكملها، تُعتقها، تُحصنها بتمائم وتعاويذ قدسية الهالة، ثم تُدثرها "بدبدوبٍ" أبيض، أنفه وردية، أسمته منذ زمن "تميم"

"هو الباركيه متعشق كدة ليه!!؟"

تُباغتها الفكرة...

– كم هو ساحر أن تفعل أشياء لا يطيقها أبواك–

تتناول مطرقة صدئة من خلف ستارتها، تجلس القرفصاء، تستند بظهرها إلى باب الخزانة، تَدُق كل نقاط الضَّعف في الخشب العطِب، تَثقبها، تُحيلها إلى دوائر مجوفة، بداخلها دوائر مجوفة، بداخلها دوائر أكثر تجويفًا...

- باقي من الزمن ثوان–

تتجه إلى الجدار، تُمسك بالرُزنامة، تُعنفها، تنزع ورقة وُلوجها إلى المنطقة الكريهة، وتحرقها. تمرِّر الرماد بين الفجوات، ثم تُواريه بذاك الحنان، وجديلة الضجر المعروفة.

تَكْ...

تُخبرها التي كانت معلقة بين الجفن والبكاء، أنها كل أسباب حزنها، وأن اختفاء زهرة الليمون من المدينة، هو كل أسباب موت الفراشة...

الحكاية الثَّامنة...

على طرف المفرش...

عزيزتي ذات الكَمُّون،

لبلاطِ الغربة سحرٌ قانٍ، ولسحره برودة، وعريٌ مفروغ منه.

أعلم كم هو جنوني أن تجدي رسالة مصاغة، بخط عربي أصيل على طرف مفرشك، ولكن... أليس من الجنون أن نكون الآن في نفس المقهى، أن نُطل من نفس الزُّجاج على خليج أسود، شوارع لا نعرفها، وبيوت لا تعرفنا...؟

أليس من الجنون أن يجلس كلانا على طاولتين قريبتين حدَّ الأنامل، بعيدتين حدَّ الأمان...؟

عزيزتي،

أومن بأن سحر الأشياء يكمن في أصولها، وأصول الأشياء هناك، تسكن علبة بهارات عتيقة ألفتها في مطبخ أمي.

هناك، حيث الشَّمس بإشراقة حبة كركمٍ مكتنزة، والجدران بنعومة حبات الصنوبر.

هناك، حيث الفلفل الأسود يتكوَّر أكثر، يُخرج كل دنايا الروح بعطسة حقيقية.

هناك، فقط هناك، أنتقي ذلك الركن الحميم في ذاكرتي، أجلس ملتحفًا بملاءات رائحتها، كرائحة أوراق الزعتر، أستبدل بلفافات التبغ أعواد القرفة الخشبية، وأفكر...

تُراها أي البهارات تلائمك؟؟

حينها، باغتتني من بين شدقتيك ابتسامة أودعتِها طرف الكأس، ابتسامة بدفء الحارة، وفرحة حواديت أمي، ولون الكمون.

حينها، استأذنتِ كأسكِ إلى الحمام، وبدوري استأذنتهُ.

"كمون بلدي حصى" ذلك ما انتشلته من القاع، ونثرتُ بعضًا من حصواته على رُسغي، تنشقته؛ كي يعلق بي ذلك العبق لأطول فترة ممكنة، ثم أخرجت قلم "برِيما" بعمر أحلام الطفولة، وكتبت على طرف المفرش، شكرًا...

شكرًا عزيزتي؛ لأن حصواتك الحميمة أحيت أصول العالم؛ ولأنها أطلقتْ في نفسي القلقة، مساحاتٍ رحبة للتطلُّع...

الحكاية التاسعة...

صباحٌ مُكرر...

صباحاتي...
دومًا ما تفتقدُ إلى شيء ما...
أستيقظ من نومي على صوت مُنكر لبائع جرائد، أغتاظ، أحاول تذكر آخر خبر مهم قرأته، لا أتذكر شيئًا، فأغتاظ...
الدفء...
غاية صعبة المنال، أبحث عنها يوميًا تحت الصنبور، صابونتي دومًا أكبر من احتوائي. يستهويني أن أترك يدي تحت الماء الساخن لأطول فترة ممكنة، أتذكر إعلان "احسبها صح تعيشها صح"، أتجاهله، أزيد من فتح الصنبور حتى يتلحفني البخار،
أرسم على المرآة مركبًا صغيرًا بشراع مكسور، دومًا مكسور...
أُغلق الصنبور ببطء وأقرر بدء يومٍ، ليس بجديد...
في الطريق إلى العمل، حمار أبيض ينظرني بامتعاض، يُخرج لسانه بملاقة، ويهمس بثقة "والله مانتي فالحة"
أغتاظ، أتهكم على غيظي لا إراديًا برفع الذقن بعض سنتيمترات إلى الأعلى
-خطأٌ فادحٌ نرتكبه، حين نعتقد أنفسنا استثناءً، أو حالة خاصة في الدنيا-
يُلاحظني السائق عبر المرآة، يضحك،
فأغتاظ...
أمام المبنى، ألمح أحد البوابين يُحملق في أجساد فتيات من الخلف، يتفحصها من أسفل إلى أعلى، من أعلى إلى أسفل، يُتمتم "أستغفر الله العظيم"
أتذكر "سعاد حسني" في "بئر الحرمان"، أُقر بأنَّ العالم يعاني من "شيزوفرينيا" مُفرطة، غير معلومة الأجل، أنظره بازدراء، يلمحني، ويبادلني نفس النظرة.
من شرفة في الطابق السادس، تستطيع إدراك حقائق الأشياء- إلى حدٍّ ما -
أرى سطوحات بارتفاعات مختلفة يكسوها التراب، ورؤوسًا معظمها صلعاء،
يُدركني "عم حسن" بقهوة عطَّرت المكان، أتذكر أبي، أتهكم على الذكرى، وأتوسل الوقت؛ كي أرحل من هنا.
- "البشمهندس عايزك"
أتأفف...
- "فيه مناقصة جديدة في مطروح... إيه رأيك تسافري معايا عشان تتعلمي؟ "
مغازلة مستترة من حين لآخر، و"موبايل" يشدو كل دقيقة بأسماء الله الحسنى،
ألم أقل من قبل!!!!
- "معلش أصل محدش هيرضى عندي في البيت "

رُبما لا أجيد صنع القهوة، لكني أجيد فنون تدارك الموقف.

- "مانتي قاعدة لوحدك، وبيسبوكي تسافري كل حتة!!"

أغتاظ، أختنق،

أستأذن.

البحر...

خير الأماكن للتهكم على الحزن.

أعتلي بانتشاء أحد الأسوار المنخفضة للكورنيش، أفرد ذراعي إلى أقصيهما في الهواء، تُرضيني الدفعة، أرفع رأسي تدريجيًّا إلى الأعلى، ثم إلى الأعلى جدًّا، لا أدري إن كان شموخًا على الدنيا، أم تفاديًا لقطرات رشحٍ كادت أن تتساقط من أنفي...

أرنو بناظري إلى الطرف الآخر من البحر،

إلى ريح تبعثرني أكثر من ذلك.

نسمات خريفية النكهة تُدغدغ أنفي الأحمر بحنو، تدعوني بألَّا أتهكم، بألَّا أُلقي بالًا لعشاق القراميد، أو أُذعن لأمر قطة عرجاء تموء تحت أرجلهم،

تُخبرني بألَّا أحزن، وألَّا أسأم، وبألَّا أكترث يومًا،

لكوني وحيدة...

الحكاية العاشرة...

"كيفك إنت"

يَطيبُ لي ذكرك في المساء، حين ينام كل الناس، ولا يبقى سواي، و ليلي المعتقُ بذكراك.
حينها أسترق السَّمع إلى قلبي؛ لأعرف ما إذا كان لازال ينبض أم لا! فوجدته ينبض، بصعوبة...
أجد نفسي أبحث عن أسطوانات كانت لها ذكرى بيننا، لا ينتابني شعور بالحنين، ولكني أشعر بالبحث عن الحنين.
ربما لم تعد شيئًا في حياتي، و لكنني أشعر بالنشوى لمجرد تذكرك، لمجرد حنيني إليك...
أجدني أختار أسطوانة لفيروز، كل ليلة فيروز،
أسمعها لساعات وساعات، لمجرد أن أشعر أنه لازال بيننا شيء مشترك،
تحكي...
"بتذكر آخر مرة شفتك سِنتها، بتذكر وقتها آخر كلمة قلتها،
و ما عِدت شفتك... "
ثم أجدني أتَّجه في حذر إلى المطبخ، أبحث عن صورة لك، وضعتها في درج مركون.
درج لا يعبث به غيري،
أنظر إليها طويلًا، وكأنني أتذكر تفاصيلك وملامحك، وأتذكر معها أيامًا حلوة.
لا أعلم لم لا أتذكر من أيامنا سوى الحلوة منها، رغم أنها لم تكن كثيرة،
ولم تكن حينها تُرضيني،
لكنني وجدتني أتذكرها، و أبتسم...
أتجه إلى الشرفة، أنظر إلى القمر المكتمل الذي دومًا ما أراك فيه، أحاول أن أستشعرك، تنظر إليه في نفس الوقت.
ويأتي نسيم الصَّباح، المحمَّل دومًا بعطرك، أحاول أن أستنشقه بعمق؛ كي يملأ كل صدري، ليعينني على التنفس ليوم آخر،
أحياه دون ذكراك...
نعم، محملٌ بعطرك، بأصوات السيارات، وبائعي الجرائد، وصخب الدنيا،
وذنبي...
أشعر به كل يوم، دون أن أتخلص منه أو من السبب،
ذكراك...
يستيقظ زوجي، في نفس الميعاد، بنفس الهيئة، ونفس النبرة:
"حضرتي الفطار ؟؟ "

ريثما ينجز مهامه اليومية في الحمَّام، وأنا أستمع إلى أصواته "البيتهوفينية" الخاصة جدًا، التي لم أسمعها منك من قبل،

أكون قد حضرتُ الفطور، وحضرتُ معه ابتسامتي الواسعة، والرضا المزيف في عيوني.

يخرج من الحمَّام؛ ليرتدي نفس البدلة التي ارتداها بالأمس، أو سواها لا يهم، فكلها نفس اللَّون تقريبًا.

يجلس؛ ليتناول فطوره كما اعتاد
في صمت.

بعدها، يتجه إلى عمله، فأتجه بدوري إلى المطبخ؛ لأغسل ما تبقى من الأمس من صحون، وذنوب...

ثم أنطلق إلى سريري؛

لأناااااااام...

الحكاية الحادية عشر...

تُقرأ مع فيروز "رِجعت الشتويه"

لاڤندر...

يستهويها أن تجلس وأشياءها خلف نافذة غرفتها في عصاري الجُمع الشتوية، تلك المزينة بزهور اللاڤندر، والمطلة بزاوية منفرجة على كورنيش الشاطبي الحنون...

أحمر، أسود، أخضر، أسود، زهري، أسود، أرجواني، أسود... ،

تحمل صندوقها الخشبي الضخم، المطعَّم بزخارف ذهبية توحي "بالروقان"، تتفحص بكرات التريكوه الصوفية، المرصوصة بعشوائية في قاع الصندوق.

تلتهم كل أطباق الأرز باللبن، و"البودينج"، و"الكاسترد" الموضوعة أمامها على استحياء، تُفضل "الكاسترد" بالفانيليا على أي طبق آخر.

تلتقط البكرة الأرجوانية، والخضراء، والصفراء، والبنفسجية. هي تؤمن بأنَّ السريالية يمكن أن تترك أثرها في اللوحات، والموسيقى، والحياة، والكوفيات...

تبدأ في غزل كوفية لن ترتديها، تُحيكها بغُرزٍ تعرفها، وأخرى تكتشفها، كما اعتادت أمام التلفاز.

"وسيم" شاب وسيم بأنفٍ كبيرة، ينتظرها كل جمعة خلف زجاج نافذته الخالية من الستائر، والمطلة بزاوية منفرجة أيضًا على نفس الكورنيش.

تقرأ في شريط الرسائل أسفل قناة مزيكا: "اغزليلي كوفية بلون عنيكي"

تسترق النظر إلى انعكاس صورة التلفاز في مرآته، تبتسم.

كل جمعة، تأتيها تلك الرسالة في نفس الوقت، تعلم أنها لها، كل جمعة تبتسم...

****

تتناول البكرة السوداء، وتبدأ رحلتي الغزل و"التسبيل" الأسبوعية، تبدأ في غزل كوفية سترتديها.

"من كام سنة وأنا ميال ميال، وفي حبك أنا مشغول الباااااااال... "

تلتقط أذنها "عمرو دياب" عبر الهواء، يسخر عقلها من عتاقة الأغنية، لكنه لا يكف عن الابتسام.

تقرأ عبر قناة مزيكا:

"يا ساكنة قلبي والشباك، بين وردة ناديه، وبين كوفية..

محدش قلك يا صبية، إن الوردة من يوم ما شُفتك..

مزروعة على طرف خدك؟؟

وإن شم الورد في قلب وحداني،

على خدود الصبايا،

غِيَّة؟؟

والنبي يا شيخة تقوليلها،

ينوبك ثواب في شاب أسمر،

نِفسه يا حلوة في كوفية، تكون

بلون عيون الصبية،

للإستعلام اتصل على ٠١٢٣٢٥٨٩٦٢ "

ترتبك، تتلعثم إبرة التريكوه بين يديها، تلتهم طبق "كاسترد" بالفانيليا، تلتقط هاتفها، وتقرر "إنها مش هتخسر حاجة"

– ألوو.

– أ أ لو...

- مش عايزة تديني الكوفية بتاعتي ليه؟؟

- أ...أ...أنا معملتـ...

- أنا هستناكِ عند نفق الشُبَّان بعد نُص ساعة، إنتِ والكوفية.

- بس، أصل...

تيت... تيت... تيت...

نُهوضها شبه السريع، يترك علامات تقعر، وتحدب واضحة على وجه المرتبة. تتعثر حركة المرور بين السرير والخزانة، ترتدي أحد فساتينها السوداء، وتضع كوفية بلون عينيها غُرزتها كزهرة لافندر صغيرة.

تُسدل قُصتها على جانبي وجهها؛ لتواري امتلاءً ما، وتتأكد أنها لم تواري الغمازات. تبحث عن فتحتي أذنيها؛ لتضع قِرطًا على شكل حبة حُمص، لا تجدهما. تضع في حقيبتها كوفيته ووردة، وشوكولاتة بالكراميل، تتجنب النظر إلى الجزء الأسفل من المرآة، وتمضي.

تلمحه بجوار النفق، تتعثَّر، تتقدم نحوه.

يراها أمام النفق، يتعثر، يتراجع للخلف.

يُمعن النظر إلى منطقة البطن، والجوانب، والأرداف.

تتجنب النظر إلى منطقة البطن، والجوانب، والأرداف.

تتراجع، تستدير، ثم تركض...

تلتهم قطعة الشوكولاتة، ودَمعة.

تنتظر عصاري الجُمع، والأيام الأخرى. تضيق زاوية نافذته، وتنفرج خاصتها أكثر، يختفي شريط رسائل مزيكا إلى الأبد، تتجاهل ميزانها التالف أسفل الخزانة.

تواصل التهام المزيد من أطباق الأرز باللبن، و"البودينج"، و"الكاسترد" بالفانيليا، وهي تُلاحظ تحولًا ما في لون زهور اللافندر...

الحكاية الثانية عشر...

سقفٌ منخفض...

إنها الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل، جسدي مُمتدٌ على سريري، وعيناي تحملق في زاوية معينة من سقف غرفتي. بتركيز كامل في تلك الزاوية، أرى حياتي شريطًا يمر بطيئًا أمام عيني، شريطٌ أرى نهايته في هذه الليلة.

دون أن أُبعد عينيَّ عن السقف، مددتُ يدي؛ لأتحسس ملاءتي على يساري فأجدها فارغة. مددتُها إلى الأعلى قليلًا لأجد وسادتي باردة،أحدثت تلك البرودة قشعريرة قوية، سرَت في كامل جسدي، حتى وصلت إلى أخمص قدميَّ. نظرتُ إلى النافذة، فوجدتها مغلقة، وعرفتُ حينها أنَّ تلك البرودة في أعماقي.

شعرت بسريري يتسع، ويزداد اتساعًا وبرودة، وسقف غرفتي يقل ارتفاعًا، حتى هُيِّء لي أنَّ بينه و بين أنفي بضع سنتيميترات.

إنها أول ليلة أقضيها بدونه، أول ليلة يترك مكانه ويرحل، وأنا لا أتمنى في لحظتي هذه سوى شيء واحد: أن أبكي،

أريد أن أبكي...

بكاء القلب أصعب ألف مرة من بكاء العين، وأنا أشعر باختناق غريب، يتملَّك حنجرتي وقلبي، اختناق لن يزول إلَّا بعد أن أبكي...

بعد ساعات طويلة مرت عليَّ، وأنا أحملق في نفس الزاوية من السقف، انتبهتُ إلى صوت مُنبهي يدق مشيرًا إلى الساعة الثامنة صباحًا، ميعاد استيقاظي للذهاب إلى العمل. أنزلتُ قدميَّ من الفراش ببطء لأجد الأرض أشدَّ جفافًا وبرودة، خُمول شديد تملَّك جسدي ونفسي.

غسلتُ وجهي وتوجهت إلى المطبخ لعمل قهوة الصَّباح،

ارتشفتُ منها رشفة واحدة، فوجدتُ بها مرارة غريبة، أضفت إليها قطعة سكر، وارتشفتُ أخرى، مُرة أيضًا...

أضفتُ قطعة تلو الأخرى، المرارة لا تقل. تركت الفنجان مكانه، ذهبت إلى غرفتي؛ لأستعدَّ للنزول، نظرتُ إلى مرآتي لأرى عينيَّ قد تملَّكت منهما الهالات السوداء، حاولت إضافة مساحيق التجميل؛ لأخفيها و زُرقة وجهي البائس، ولكن معالم البؤس لا تخفيه سوى مساحيق سحرية.

إنه ذات الاختناق الذي اعتراني بالأمس، ودعوت الله أن يُبكيني،

أريد أن أبكي...

تركتُ مساحيقي السخيفة، واتجهت إلى خزانتي، فتحتها؛ لأتناول ثوبًا أسود.

اتجهت مقلتاي إلى اليسار قليلًا؛ لأرى ثيابه بجوار ثيابي، مددت يدي لألتقط إحدى بذلاته التي كان يفضلها، نظرتُ إليها طويلًا، ثم أدنيت البذلة إلى صدري، و احتضنتها بقوة.

شعرت لوهلة أنَّ الله بعث الروح في أكمامها؛ لتحتضنني هي الأخرى.

شردت لدقائق، حتى أفقت من شرودي على صوت حنون ينادي برقة الدنيا : "ماما"

التفت لأرى وجه ابني، والنعاس يداعب جفنيه الصغيرين، ثم نزلت على ركبتي لأضمه إليَّ بقوة.

فجأة، شعرتُ بقطرات مبللة على خده الرقيق،

حينها فقط،

أحسست بشيء من الأمل،

وشيء من الراحة،

لقد بكيت...

هامش حالم...

لم تكن أنتَ، ولم أكن أنا...

في عالم غير العالم،
لم تكن أنت، لم أكن أنا...

كنا أطيافًا...

كنتُ طيفًا هادئًا، يستندُ بظهرٍهزيل
على ظهر نصف القمر،
في استجمام...
أرتدي جوربًا صوفيًّا أزرق،
أتكئ بقدم واحدة على الطرف البعيد للقمر،
وأترك الأخرى تتدلى للحياة...

في حضني دبدوب أزرق،
وفي قلبي مصباحٌ أزرق،

وأنتَ حولي...

تتنقل بين النجمات في رشاقة، ومرح،
تضحك...
كلانا ينظر إلى الأرض من أعلى،
ولا يكترث،
لم تكن أنت، لم أكن أنا...

في عالم غير العالم،

كنتُ زهرة برية تعلو ذلك التل الأخضر،
وكنتَ أنتَ شعاع النور،
وأنتَ عطر التل،
وأنتَ العشبَ الأخضر،

لم تكن أنت، لم أكن أنا...
في عالمٍ غير العالم،
كنا أقحوانات بيضاء،
فراشاتٍ مضيئة،
طيورًا تأبى التغريد داخل السرب،
كنا نطير...
كنا نطير...

لم تكن أنت، لم أكن أنا...

في عالمٍ غير العالم،
قبل أن تتردَّد أنت،

وقبل أن أستيقظ أنا...

شكرًا لكلٍّ من

أبي...

غُربتي...

استثنائية فيروز...

روح إحسان عبد القدوس...

لبنى، أماني، مروة أبو ضيف، أصدقائي في إطلالة...

وكل من علمني كيف أُمعن النظر في الأشياء الصغيرة...

إيناس حليم

تجلس على حافة شباكها، ترقُب القمر من بعيد، تنتظرك أن تأتي حاملا باقة من الورود الحمراء التي تحبها فتسعدها...

تراك أحيانا جالسًا فوق السحاب، تمد يدك؛ لترفعها بجوارك...

تنتظرك، تتمنى أن تراك، وتحبها، وتعرف من هي...

لاتتركها تنتظر طويلًا، ولا تتردَّد في المجيء، فمجيئك يسعدها،

لكنه يحييك...

لبنى غانم

الحكاية الأولى...

رسائل..

انتابه الاندهاش الشديد لما سمعته أذناه، نادته "علي" دون أي ألقاب. لقد تعوَّد منها دائما أن تناديه "بشمهندس علي" التفت ليجدها أمامه بكامل أناقتها، مختلفة عن أي يوم رآها فيه. أخذ يحدق فيها مليًّا، وبين لحظة اندهاشه وصمتها، تنبع كلمة من أعماق قلبها، فتتهته: "وحشتني"

صعقته الكلمة، أربكته، فلم يستطع الكلام، وأصابته نوبة من "التتنيح" الحاد، فتقطع عليه تلك الحالة بنبرتها المرتعشة، وعيناها الدامعة تقول له: "معقول شهر مختفي، محدش يعرف عنك حاجه، وكمان قافل موبايلك"

فيجيبها بكلمات متقطعة: "أنا، أنا كنت تعبان شوية".

فيتساءل عن سر تلك اللهفة والدموع بعينيها، فتجيبه بكلمة واحدة اختصرت كل المسافات، وفسَّرت كل الكلمات، وكسرت كل الحواجز بين البشمهندس علي و البشمهندسة سلمى، فتخرج الكلمة من بين شفتيها كالهمس: "بحبك".

كادت الكلمة أن تطيح به أرضًا، رجع خطوات متباطئة إلى الخلف، وأسند يده اليسرى إلى الحائط خلفه، وكأنه يحافظ على ثبات تلك الحائط لا ثباته هو، فتقترب أكثر، فيبتعد قليلا. تمسك بيده اليمنى متسائلة: "أمازلت مريض".

اختل توازنه عندما لمست بيدها الناعمة يده الجافة البائسة، فكاد ينهار الحائط عليه، وكأنه وصله ذلك الإحساس الذي شعره حينها.

لم تكن سلمى في ذلك اليوم، البنت الخجولة التي عرفها علي، أو "البشمهندس علي" كما يروق له أن يسمع ذلك اللقب يسبق اسمه، حتى من أقرب الناس إليه.

نظر إليها مندهشًا، غير مصدق ما تسمعه أذناه، وهي تقول له: "متستغربش إني اتجرَّأت وقولتها، أنا مش عارفة أزاي نطقتها".

فينظر لها قائلا: "بس"

تقاطعه ثانيا قائلة: "أنا مش مصدقة، إني اعترفت بحبي ليك".

يزداد اندهاشه، فيكاد أن يغشى عليه من وقع كلماتها، ونبرات صوتها التي تكاد تهزم أي قلب يقف أمامها.

تنظر إليه بكل ثقة، وبلغة عربية فصحى متسائلة: "لقد أدليت باعترافي، أما آن الأوان أن تعترف أنت الآخر بحبك لي".

فأصابته نوبة" التتنيح" مرة أخرى، بل أنها لم تكد تفارقه في ذلك اليوم؛ لما يسمعه، ويراه أمام عينيه من شوق، ولهفة، وكلمات صادقة، تخرج من أعماق القلب التي لم يسمعها قط على مدار تاريخ حياته، وسنوات عمره الخامسة والعشرين، فلم تمنحه حياته العملية الفرصة لأن يشعر بمثل ذلك الإحساس، أو يسمع تلك الكلمات.

فتخرج الكلمات مندفعة من فمه فجأة، وكأنها تحرَّرت من سجنها: "أي اعتراف، وأي حب!!"

يتبدل حال سلمى بحال علي، فتكاد تسقط مغشيًّا عليها لما سمعته، لم تكن تتوقع أبدًا أن يبادل اعترافها بحبها له بتساؤل. توقعت أنه عندما يسمع تلك الكلمة منها، سيحملها بين ذراعيه ويدور بها، مثلما كانت تشاهد في أفلامها الرومانسية، وأحلامها الوردية، ولكن حدث العكس تمامًا.

تمالكت نفسها قليلا، وسجنت دموعها بعينها وسألته: "مش إنتَ اللِّي كتبت كل الجوابات دي"

فينظر لها بتعجب مستهزئًا بكلامها: "أي جوابات...؟"

فتمد يدها في حقيبتها، وتخرج الرسائل؛ لتعطيها له،

فيؤكد لها، دون أن ينظر لتلك الرسائل، أنه لم يكتب أيَّ حرف بها.

تركها غارقة في دموعها، وندمها، وتسرعها في الاعتراف له بحبها. لقد ظنت أنه هو الذي يضع لها تلك الرسائل يوميًّا في حقيبتها. إنَّ تلك الكلمات التي كانت كل يوم تقرأها، وتضعها تحت وسادتها قبل أن تنام، هي وحدها التي جعلتها تحبه، لولا ذلك، ما كانت شغلت بالها به.

جلست حائرة، هائمة على وجهها، تفكر في ماهية ذلك الشخص الذي يضع لها تلك الرسائل بحقيبتها، فمن هو ذلك الشخص القريب منها -كما يكتب- غير "علي" الذي يربطها به عمل دائم؟ من هو صاحب تلك الكلمات "أحبك جدًّا، وقريب منك، ليتك تعلمين من أنا، خوفي من الرفض يمنعني من الاعتراف لكِ، لم أجد منك أي إشارة تمهِّد لي بالاعتراف، ليتك تعلنين إشارة البدء"

زاد بكاؤها، و"محمود" الذي يقف خلف الحائط المقابل لها، تنهمر الدموع من عينيه؛ لما سمعه ورآه، فهو سبب كل ما حدث. وقف سامعًا وشاهدًا لكل ما دار بين علي وسلمى، نادمًا على ما فعله بها، فلم يكن هو الشخص القريب بالنسبة لها، لكنه كان البشمهندس "علي" المشرف على عملها، أما هو فاكتفى بالنظر إليها من بعيد.

بينما هي جالسة منحنية رأسها على ذلك الكرسي الخشبي الذي تجلس عليه، يقترب محمود بعينيه الدامعتين، وقلبه المحترق ليقبل رأسها، قائلا: "أنا آسف".

ترفع رأسها، والدموع غامرة وجهها: "بشمهندس محمود".

يكرر جملته: "آسف يا سلمى، مقدرتش أوصلك إحساسي".

أدركت سلمى في هذه اللحظة أنَّ الشخص الذي كان يضع لها الرسائل، هو محمود.

نظرت له نظرة لائمة، فمدَّ يده؛ ليمسح تلك الدموع المتساقطة من عيناها، فلم تشعر بنفسها إلَّا وهي ملقاة بين أحضانه.

لم تعلم حينها لماذا دفنت نفسها بين ذراعيه، هل؛ لأنه بالفعل هو الشخص الذي أحبته، ولكنه كان مجهولًا عنها، أم لأنها كانت بحاجه إلى حضن تدفن فيه ألمها.

جلست سلمى بفستانها الأزرق، تتذكر كل ما حدث، والطريقة التي أحبَّت بها محمود في عيد زواجهما الثالث، وهي تنير الشموع، وتحضر المائدة المفروشة بالورود الحمراء، وتنثر العطر الذي يحبه في كل مكان بالمنزل.

دخل محمود ليقطع عليها شرودها، لكنها لم تكن تشعر بوقع خطواته؛ لأنها كانت قد ذابت مع أنغام موسيقى الساحر"Mozart" التي يعشقها، والتي جعلتها تشعر وكأنها منوَّمة مغناطيسيًّا للحظات،

فأيقظتها قبلته التي طبعها على خدها، فأخذها بين ذراعيه لعالم آخر يتراقصان على أغنيتهما المفضلة:

" I want to spend my life time loving you "

أكره نفسي التي تحبك...

تقف، تنظر إلى القمر، تشكي له هموم يومها، فيأتي من خلفها، يغمرها، فتنسى ما كانت تفكر به، وتنسى القمر الذي يطل عليهما من بعيد، وتستسلم لحضنه الدافئ الذي يذيب بردها. كم هو قادر على إذابتها كالجليد، وصهرها كالحديد. كم هو قادر على إذابتها، فتصبح بين يده لا شيء؛ لأنه باختصار أذابها فيه، فأصبحت جزءًا من كيانه، جزءًا منه.

فتلتفت له، وتغمره بقوة، وبعين باكية تعتذر له: "أنا آسفة إني زعلتك إمبارح، لم يكن من المفترض أن أفقد أعصابي لهذه الدرجة، وأقول كلامًا يغضبك مني".

فينظر لها بحنان، ويجفف دموعها: "مقدرش أزعل منِّك مهما عملتي".

فتبتسم، وتلقي بنفسها بين أحضانه: "أتمنى مزعلكش مني أبدًا".

دائمًا كانت تشعر بالذنب، وتأنيب الضمير، فرغمًا عنها ينفلت قيد أعصابها من يدها، ويتفوَّه لسانها بكلام جارح له أحيانًا. كم كان لطيفًا معها، يسامحها دائمًا فلم تكن بالنسبة له زوجة فقط، بل كانت طفلته المدلَّلة التي مهما فعلت يسامحها على الفور، فعندما تأتي له معتذرة، يضعف أمام دموعها، فيسامحها بلا تردُّد.

أشياء كثيرة تفعلها لا يرضى عنها، ولا هي في قرارة نفسها راضية عنها، لكن رغمًا عنها تفقد أعصابها، فقد تثير غضبه أحيانًا، عندما يكونا جالسين مع أصدقاءهما، وتعلو ضحكاتها عن الحدِّ، أو لسذاجتها وسطحيتها عندما تتحدث إليه في موضوع ما.

ملت من تصرفاتها، وملت من مسامحته لها، وحبه لها رغم عيوبها الكثيرة، كم تمنت أن يأتي، ويصفعها على وجهها عندما تغضبه، لكنه لا يفعل سوى أن يضمها إليه، كأنها طفلة صغيرة في حضن أبيها.

دائمًا ما تشعر باليأس في أن تتغير، أخطاؤها كثيرة وحبه يفوق كل شيء. كم من مرة أتى من عمله لم يجدها قد أعدت الطعام لحجج واهية، فتلمح على وجهه الغضب المكتوم، فتنهض مسرعة تقبله، وتقول له: "حالًا الأكل هيكون جاهز، فتجعله عاجزًا على أن يقول لها أي شيء".

لكن كفى، فقد كرهت نفسها، وكرهت حبه لها؛ لشعورها دائمًا أنها لا تستحق كل هذا الحب، فهي تشعر دائمًا أنها تغضبه أكثر ممَّا تسعده. تشعر دائمًا بالسذاجة والغباء أحيانًا، أنها بلهاء، عصبية، ثرثارة، وأستاذة، ورئيسة قسم في خلق المشاكل، وهو يقابل كل شيء بحب وحنان، ربما شفقة عليها، أو حبًّا لها، أو أملا في أن تتغير. أخذت تحدث نفسها في المرآة باكية، ما الذي يمنعه أن يطلقني ويبحث عن غيري؟ ما الذي يمنعه أن يخونني ويعشق غيري؟ لماذا مصر على حبي رغم كل عيوبي، أنا أحبه بجنون، ولا أتصوَّر حياتي بدونه، أتمنى كثيرًا أن أسعده، لكن بغبائي لا أستطيع تغيير أي شيء.

أمسكت بورقة وقلم، وأخذت تكتب: "زوجي العزيز ساعدني،

أعلم أني أغضبتك كثيرًا، أعلم أني تماديت في أغلاطي وأخطائي، وأنك كنت معي أحنَّ من الحنان نفسه، وتقابل كل شيء أفعله بحب وعطف، لا يوجد في شخص إلَّا فيك. كم أحبك، أحبك جدًّا، أكثر من حياتي، وكم يملؤني الحزن و الكآبة عندما أغضبك مني. سامحني يا أحب إليَّ من نفسي، حاول أن تساعدني؛ كي أغير من نفسي. كم سألت نفسي لماذا تسامحني كل مرة، وتدفن غضبك بين أحضاني؟ كم أنت رائع، من مثلك يفعل هكذا، من مثلك يصبر هكذا، فرجل غيرك لن يستطيع. أعلم أني لا أستحق حبك لي، كم يخجلني حبك من نفسي، وتحيرني رقتك، وطيبتك، وحنانك. يا رجلا لن يتكرر في تاريخ الرُّجولة، حاول أن تساعدني، وإن كنت قد مللت مني، فاتركني، فهذا أقصى عقاب تستطيع أن تعاقبني به، ولكني عندي أمل في أن أتغير من أجلك فقط، سأحاول، فقط ساعدني فأنا بحاجة إليك، وفي النهاية أنت سيد القرار..."

طويت الورقة ووضعتها على مكتبه، فهي تعلم أنه بعد الغداء يفضل الجلوس بمكتبه؛ ليقرأ.

عندما عاد من عمله، تناولا الغداء سويًّا، وذهب كعادته لغرفة المكتب، وذهبت هي إلى غرفة النوم، تبكي وتنتظر رد فعله من رسالتها. هل قرأها أم لم يرها بعد؟ أخذت تبكي؛ لأنه لم يكن يستحق منها أن تغضبه دائمًا، فكم حاول إسعادها وإرضاءها، وكانت دائمًا مستهترة لا تبالي بأي شيء.

قرأ رسالتها المبللة بدموعها، وانتابته الدهشة لِما يقرأه، ازداد خفقان قلبه، ربما زاد حبه لها أكثر بهذه الرسالة، ربما زادت سعادته بها، وعلَت بنظره كثيرًا.

دخل عليها الغرفة، فوجدها تبكي، فأمسك بيدها ونحى بيده شعرها المبلل بدموعها عن وجهها: "قولتلك أنا عمري ما أزعل منك مهما حصل، وهفضل أحبك على طول".

فترد هي: "أنا مستحقش حبك ليَّا".

فيجيب: "تستحقي أكثر منه بكثير".

فيزداد بكاؤها، فيضمها إليه، يغمرها، يذيبها، يصهرها، فتصبح كقطعة الجليد الذائبة بين يديه.

الحكاية الثَّالثة...

غريقًا ببراثن السحر...

عيناها الزرقاوتين، وشعرها الكستنائي اللَّون يزيدها روعة وجمالًا، ترتدي فستانًا بلون البنفسج، تجعل كل من يراها يؤسر بجمالها، يقف أمامها عاجزًا عن الحركة، غريقًا ببراثن السحر الذي أوقعته فيه، حين رأتها عيناه دون قصد منها، ودون تعمد منه، تمنى حينها أن تكون تلميذة بنفس القسم الذي يحاضر فيه. ظل واقفًا ينظر إليها من بعيد، بينما هي واقفة أمام بوابة الجامعة يبدو عليها القلق، فقد تبيَّن له ذلك من نظراتها في ساعتها دائمًا، ربما كانت تنتظر شخصًا ما، أو شيئًا ما، لا يدري. فتأتي سيارة من بعيد، تبدِّد مظاهر القلق على وجهها، وتظهر بدلا منها ابتسامة يزينها الأمل. ينزل منها السائق؛ ليفتح لها الباب فتصعد هي إلى سيارتها، بينما تلحقها عيناه إلى أن تلاشى أثرها تمامًا، فأغلق باب سيارته، ودخل الجامعة مسرعًا؛ فقد تأخر عن موعد محاضرته، وليس من عادته التأخر على تلامذته.

يمر يومه، وتبقى صورتها قابعة في ذهنه، فهو لم يرَ بحياته ذلك الجمال الهادئ الذي يأسر من يراه. بات ليلته يفكر بها، وتمنى أن يراها ثانية، ربما جعله تفكيره بها طوال اليوم أن يراها في منامه. جميلة مثلما رآها في الحقيقة، تقف وحدها بفستان يشبه فساتين العرائس، ويقف هو بعيدًا، ينظر إليها، فتبتسم، فيقترب، فيَدق منبهه ويوقظه من حلمه.

يتكرر المشهد ذاته بعد عدة أيام، ولكن هناك اختلاف ما، لم يصدق عينيه عندما وجدها جالسة أمامه في المدرج. جميلة، هدوؤها قاتل ومثير، وعيناها الباسمة تحرك شيئًا ما بداخله، تدفعه أحيانًا أن ينزل إليها، ويصرخ في وجهها ،ويقول لها من أنتِ، وما فعلتِ بي، ويضمها إليه، ويقبلها أمام الجميع.

فمنذ أن أصبح معيدًا بتلك الجامعة، لم يرَ فتاة تقلب حياته هكذا رأسًا على عقب من يومِ رآها فيه، بل لم يعرف قلبه حبًّا من قبل لا عندما كان طالبًا، ولا عندما أصبح أستاذًا. عاد بذهنه الشارد لإلقاء محاضرته، بينما عيناه دائما عليها، وعقله غائب عن الجميع إلَّا هي، وأسئلة تدور بداخله، ماذا يحدث لي أهذا هو الحب، أم هو مجرد انبهار بها، أم شيء آخر لا أعرفه؟ انتهت المحاضرة، ولم تكفَّ عيناه عن النظر إليها، فتربكها نظراته، تخجل، فتحمر وجنتيها لتزيدها سحرًا فوق سحرها، وجمالا فوقه جمالها، وتزيده لهفة، وشوقًا، وجنونًا. يقف حتى ينصرف جميع الطلاب، تبقى حتى ينتهي الزحام، فتخرج في هدوء، هاهي فرصته كي يتحدث إليها. يقترب إليها بنظراته الهائمة، ترتبك ولا تبالي بنظراته، وتهم بالانصراف، فتزداد ربكتها وتقع أوراقها فتتبعثر أمامها، فيجمع معها الأوراق المبعثرة، فيلمح في تلك الأوراق رسومات غاية في الروعة والجمال، فتنظر له بنظرة باسمة خجولة دون كلام، فتزيد جنونه جنونًا، وتملأه حيرة.

فقال لها: "انتبهي مرة أخرى، قد لا تجدين شخصًا يساعدك في لمِّ أوراقك المبعثرة"

انتظر منها كلمة واحدة، لكن لم يجد منها سوى نظرة، وابتسامة، ووجنتين اصطبغتا بالحمرة من شدة خجلها، فعندها كاد يجن جنونه، ولكنها انصرفت مسرعة، فضرب يديه بالحائط من رد فعلها الذي لم يكن يتوقعه.

يأتي في اليوم الذي يليه رابطًا يده، فيسأله معظم الطلاب الجالسين عن السبب، ويرددون: "ألف سلامة"

بينما هي صامتة، فتزيده استفزازًا دون عمد منها. في منتصف المحاضرة، ينظر إلى الطلاب، وينظر لها تحديدًا: " تقدري تقولي، كنت بقول إيه دلوقت"

فتنظر له مشيرة بيدها إلى نفسها،

فيؤكد لها: " أيوة أنتِ"

فتنظر له بعين دامعة، لم يفهم منها شيئًا،

بينما ينبهه الطلاب لشيء آخر لم يفهمه أيضًا،

وهو مصرٌّ على أن تعيد ما قاله،

فتنزع ورقه من كشكولها، وتكتب عليها بخط عريض "أنا مش بتكلم"، وترفعها له،

فيقع على كرسيه من صدمته، بينما تهرع هي خارج المدرج باكية،

فتبين له حينها سر صمتها، و هدوئها، فهرع وراءها؛ ليعتذر لها، ولكنه لم يجدها.

انتظرها أن تأتي في اليوم التالي؛ ليعتذر لها أمام الطلاب فلم تأت، فيزيد ضميره تعذيبًا به. أسبوع يمر بأيامه السبعة، وكأنه سبعة أشهر، ربما سبع سنوات، لم تأت ولم يرها، وشوق بداخله يزداد يومًا بعد يوم، وندم، وتعذيب ضمير يؤرقه. وبعد أسبوع، وجدها جالسة بمكانها، فأعلن لها اعتذاره أمام جميع الطلاب، وطلب منها أن تكتب له إذا كانت قبلت الاعتذار أم لا، فابتسمت له ابتسامة صافية تدل على أنها قبلت اعتذاره، وكتبت له قبولها لاعتذاره. ارتاح قلبه قليلا عندما ابتسمت له، لكنه لن يرتاح نهائيا حتى يعترف لها باعترافه الآخر، ولكن شيء بداخله يمنعه، وأسئلة بداخله تدور هل يستطيع العيش معها هكذا، وهي صامتة؟ كيف سيواجه أسرته وأصدقاءه بها؟ بات ليلته يفكر بتلك الأشياء، فأصبح يومًا بعد يوم، لا يستطع أن يمنع نفسه من التفكير بها، فضرب بأفكاره وأسئلته عرض الحائط، وقرر أن يصارحها بحبه، وليكن ما يكون، لكن السؤال الوحيد الذي أصبح يراوده، هل تحبني أو على الأقل تشعر بحبي لها؟ هل نظراتي لها أرسلت لها إشارة ما بأني معجب بها؟.

رغم بحر الحيرة الذي غرق به، قرر عندما يراها أن يخبرها بكل شيء.

كانت آخر من يخرج من المدرج كعادتها، فأوقفها وطلب منها يتحدث إليها قليلا، فوافقته، لم يكن يدري كيف يبدأ الحديث صمت قليلا، بينما نظراتها تدعوه للحديث. أخذ يحدثها متلعثمًا، أخبرها أنه من يوم رآها، لم يكفَّ عن التفكير بها، فنظرت للأرض، وقد ظهرت عليها ملامح الخجل، وأخذت تكتب بعض الكلمات في كشكولها، فهمَّ بالجلوس جوارها؛ كي يرى ما تكتب:

"إنَّ الله قد أخذ مني نعمة الكلام، ولكنه منحني الإحساس، وكنت أعلم بما تشعر به " ابتسم واتسعت حدقة عينه من الدهشة والفرحة، ولكنها استمرت في الكتابة " وعندما اعتذرت لي، أدركت كم أنت شخص رائع طيب القلب، وربما راودتني أحاسيس ومشاعر تجاهك" ومازال هو سعيد بما تخطه يداها "ولكني رغم كل ما قلته، أرفض أن أضعك في موقف الملام من الجميع، وأرفض أن أكون محل شفقة الآخرين بي، وأولهم أنت"

أمسك بيدها، ونظر إليها، وقد ترقرقت الدموع بعينيها،

وقال لها : "لن أقف موقف الملام عندما أعلن حبي لكِ أمام الجميع، بل سأقف موقف المحسود من الجميع، لن تكوني محل شفقة، بل ستكونين محبوبة الجميع. لقد وهبكِ الله نعمة أخرى، وهي الرسم، سأساعدك؛ كي تصل لوحاتك هذه لكل الناس " فتنظر له بنظره يملأها الخوف، فيضغط على يدها، فيمنحها بعض الاطمئنان والقوة.

ذهبت إلى بيتها سعيدة تملأها الفرحة، أخبرت أمها بما حدث فلم تصدق نفسها من شدة فرحتها، بعد أن فقدت الأمل في أن ترتبط ابنتها الوحيدة، وتتزوج مثل باقي البنات اللائي في مثل سنها.

وذهب هو الآخر إلى بيته سعيدًا بما حدث معه اليوم، ولكن لم تكن سعادة كاملة كسعادتها، ربما كان يشوبها بعض الخوف بل الذعر والندم أحيانًا، وأسئلة تدور داخل نفسه، ما الذي فعلته؟ ربما تسرعت فيما قلته لها اليوم، ماذا بشأن أبنائي في المستقبل لو تزوجتها؟ ربما جعلني حبي لها غير مدرك ببواطن الأمور، غرق بدوامته فترة، لم يذهب فيها إلى الجامعة، ولم يحاول رؤيتها قط، تركها هي الأخرى غارقة بدوامة الحيرة والشك، والقلق عليه، والخوف منه أحيانًا أخرى.

تدور بداخلها الشكوك، أنه فكر بالأمر مليًّا وخاف مواجهتها حتى لا يجرح مشاعرها، وشيء ما بداخلها يلتمس له العذر، فيكفيها أنها وجدت من يحبها، ويكفيها أنها وجدت من يحرك مشاعرها لأول مرة.

قررت أن تنسى ما قاله لها فقد تبين لها الأمر، أدركت أنه خائف من المستقبل، وخائف أيضًا من مواجهتها، فقررت ألَّا تضعه في موقف يحرجه، ويجرح مشاعرها. قررت أن تنقل أوراقها لجامعة أخرى، وليدفن حبها بقلبه، و لتحيا هي بحبه، فلا سبيل سوى ذلك، ولكن ثمة شيء قد يحدث، فيبدل كل شيء، ظنونها، خوفه، قلقها، وشكه، أو تبقى بعيدة تحيا بالحب، ويبقى هو بعيدًا يميته إحساسه بالذنب...

ورقة خريف

تجلس في منتصف الليل، لا تجد شيئًا تفعله، فقد ملَّت من قراءة تلك الرواية التي تشبه فيها بطلتها كثيرًا، ملَّت من قراءة قصة حياتها مرة أخرى في تلك الرواية. ألقتها سأمًا منها ومن بطلتها التي تشبهها، ومن جوِّ حجرتها الكئيب بحوائطها الداكنة، وصور الملاك الحزين التي تزين جدرانها الأربعة.

خرجت مللا منها، ومن كل شيء بها؛ لتشاهد التلفاز، أخذت تتنقل بين محطاته التي ربما لم تجد فيها ضالتها، فقررت أن تستمع إلى الموسيقى عبر الراديو، لعلها تغفو على نغمات الموسيقى المنبعثة من ذلك الجهاز الصغير، فتجد برنامجًا يتحدث عن الحب، هو برنامج يعرفه الجميع ويحبونه، أما هي فلا تطيق سماعه بالمرة؛ ربما لأنها تكره سماع تلك القصص، وتلك الفتيات اللاتي تتشابه نبرات أصواتهن، وكأنهن شخصية واحدة، لا تدري ما الذي جعلها هذه المرة تستمع إليه؛ ربما كانت رغبتها في الخروج من حالة الملل والفراغ التي كانت تنتابها في ذلك الوقت. جلست شاردة الذهن، تستمع إلى ذلك البرنامج، فتارة ترأف بحال هؤلاء المتصلين الذين اشتركوا في عذاب واحد، وهو الحب، وتارة أخرى ترأف بحالها الذي لا يختلف كثيرًا عن حال هؤلاء؛ ربما كانت شخصيتها القوية هي السر في عدم بوحها بجرحها، وإخفائه عن الجميع، بل لدرجة إقناع نفسها أنَّ ما كان بحياتها ليس حبًّا، وأنها أقوى من ذلك الشيء الهلامي القادر على صعق أي قلب بكل ثقة وسهولة، ولكن فجأة انتابتها نوبة بكاء حادة، قطعت عليها شرودها، و أفاقتها من وهمها وكذبتها التي صدقتها، فرغم قوة شخصيتها التي تتميز بها ويعرفها عنها الجميع، إلَّا أنها أشبه بأوراق الخريف التي أوشكت على السقوط من فوق أغصانها، فقد أرهقتها شدة الهواء فجعلها غير قادرة على التشبث بأغصانها مثلها تمامًا، فقد أرهقها الهوى فلم تعد قادرة على حمل قلبها بداخلها من ثقل جراحه، وكأنه أصبح جبلا بداخلها لا تقوى على حمله، ربما الفرق بين الهواء والهوى ليس كبيرًا من وجهة نظرها، فنحن لا نستطيع العيش بدون الهواء الذي نتنفسه مهما كانت شدته، التي بإمكانها الإطاحة بكل شيء، ولا نستطيع أن نحيا بدون الهوى مهما كان عذابه، ومهما ترك في قلوبنا جروحًا غائرة يصعب مداواتها. وبين شرودها، ودموعها، وأفكارها التي تجيء ذهابًا وإيابًا بعقلها، همَّت لتلتقط هاتفها، ولأول مرة في حياتها، تفكر في أن ترسل رسالة لذلك البرنامج تحت اسم مجهول، لا لحل مشكلتها، ولكن؛ لتخفف عنها حمل ذلك الهم الثقيل بداخلها.

أمسكت هاتفها بيدها المرتعشة، لا تعرف بأي حرف تبدأ الكتابة، وأي كلمة ستكتب، هل ستكتب أن قلبها لازال متشبثًا بأول حب عرفه، رغم محاولة آخر امتلاكه، ورغم شعورها للحظة أنها تحب ذلك الآخر؛ ربما لأنها وجدته عوضًا لها عن حبها الأول، ربما وجدته أقرب إليها من أي شخص آخر، أو ربما أنه يحمل نفس الصفات التي تتمناها بشريك حياتها، والتي كانت تكمن في أول حب لها، فبدون أن تشعر، يأخذها حنينها إلى الماضي للتفكير بذلك الحب السابق، فبين ماضيها وحاضرها تقف الذكريات تأبى الرحيل، ترفض أن تقبع بصندوق الماضي فتدفن فيه إلى الأبد، أو تعود من جديد لحاضرها فتصبح واقعًا معاشًا، فتقع في بحر المقارنة بين حاضرها وماضيها. تراجعت في لحظة عن تلك الفكرة المسيطرة على ذهنها، وتركت الموبايل من يدها. تراجعت عن الفكرة تمامًا، فهو خارج نطاق حياتها الآن، وإلى الأبد، وإن كان حنينها يغلبها لتفكر به من حين لآخر، أو تتذكره من حين لآخر. بين لحظات من الإصرار والتحدي لنفسها، ينتزع روحها صوت ليس بالغريب عليها، فيردها إليها ثانية، ويتركها في ذهول تام، ولكن كيف هو، وهو الذي أخبرها ذات يوم أنه مثلها لا يطيق سماع هذا البرنامج، ولا يعير تلك التافهات اهتمامه، فيؤكد مقدم البرنامج أنه هو عندما ناداه باسمه، انتابتها لحظات استغراب ودهشة، وأخذت تنصت جيدًا إليه، وهو يقول: "مرت ثلاث سنوات كاملة على فراقي للإنسانة التي أحببتها، وفي عيدها الرابع والعشرين، أقول لها كل عام وأنتِ بخير يا ملاكي" أصابت كلماته قلبها بصعقه كهربائية، كادت أن تصعقها، وبحركة لا شعورية منها، أمسكت هاتفها، وأخذت تدق عليه، لم يكن هاتفه مسجلًا بذاكرة هاتفها، ولكنها تحفظه عن ظهر قلب، فيستجيب هو لدقاتها المتتالية التي تتسارع معها، دقات قلبها، ويفاجئ بسؤالها " لماذا تركتني؟ وبعدك تحبني، لماذا جعلت تلك الفوارق الاجتماعية

تفرق بيننا؟ لم أطلب منك أن تسكنني قصرًا، ولم أطلب منك أن تأتي لي بالمحال، فقط كل ما أردته أنتَ، أن تكون بجواري دائما"

فيجيبها بصوت متقطع: كنت أود أن أكون جديرًا بك.

- وهل أصبحت الآن جديرًا بي ؟
- كل ما أردت إخباره لكِ أني مازلت أحبك، وسأظل أحبك، وبعد أن أصبحت الآن جديرًا بك عجزت عن الاقتراب منك، حتى لا أفسد عليك حياتك.
- وأنا الآن لم أعد جديرة بك، ولا بغيرك، فقد أصبحت كورقة الخريف، يتقاذفها الهواء هنا وهناك.

قالت كلماتها الأخيرة، وأغلقت الخط...

حبك وحده لا يكفيني...

كان عندي يقين دائمٌ، أنَّ الحب وحده لا يكفي لاستمرار الحياة الهادئة في أي علاقة حب بين اثنين، ومازلت أتمسك بيقيني هذا، فحبك وحده لا يكفيني. تحاول دائمًا أن تجعل مني الفتاة التي طالما حلمت بها، لكنك تفشل دائمًا. تقسو عليَّ أحيانًا، وتعود من جديد لتعتذر، وأقبل اعتذارك بكل حب، ملتمسة لك كل أعذارك. تتهمني أحيانًا، وتقول عديمة الإحساس، مات قلبها مع أول حب لها، أسمعك وأنا صامتة، وقلبي يصرخ من الألم من وقع كلامك الجارح عليه. تعود مرة أخرى لتعترف أنك أخطأت بحقي، أسامح وأصفح، لكن إلى متى...

أصبحت لا أدري إن كنت حقًّا تحبني أم لا، حتى إحساسي بحبك صار قابلًا للشك، هل هو حب حقيقي أم وهم بنيته بخيالي؛ لأني شعرت في لحظة ما أنك تحبني، وأنه من المفترض أن أبادلك ذلك الإحساس. وتعود لتأكد لي أنك تحبني، لكن حبك وحده لم يكفيني. لم تعطني سوى إحساسًا بالحب ملبدًا بالألم. الألم؛ لأنك دائمًا تريدني كما تريد أنت، لا كما أريد أنا، تريدني دائمًا مطابقة تمامًا للوحة رسمتها لي بخيالك. فماذا أحببت فيَّ بعد؟ لا تقل بعد ذلك أنك تحبني وتريدني.

فمثلما تريدني كما تشاء، أريدك أنا أيضًا فارس أحلامي، أريدك من حلمت به وتمنيته، أريدك من يأسر قلبي، وروحي، وعقلي، لكن ماذا أعطيتني لكي أعطيك كل ذلك؟ لا شيء سوى كلمات سمَّيناها حبًّا.

كل منا يريد من يكمله، وأصبحت لا تكملني في شيء، ولا أكملك في شيء؛ ربما انجرفت مشاعرنا رغمًا عنا عندما شعرنا بذلك الإحساس الذي لم نعرف له اسمًا بعد. إنني لا ألقي باللوم عليك، ولكن ألقيه على نفسي التي أغمضتْ عينيها، وانجرفت نحوك، لوهم حبك لها. فلا تقل الآن أنك تحبني، فقد كرهت تلك الكلمة، ومللت سماعها، وإن كنت حقًّا تحبني، فاعلم أن حبك وحده لم يعد يكفيني. لم تكن لي الأمن والأمان، لم تكن لي الحبيب والصديق، فقد كنت دائما كشهريار تهدد حبي دائما بالموت.

فكلما اقتربت منك أجد ما يبعدني عنك، وأكتشف أنك لم تفهمني بعد وأنَّ حبك من البداية لم يكن حبًّا. لا أدري ماذا أقول بعد، أعلم أنه لا جدوى الآن من كلامي، فقد انتهى كل شيء، فأنت دائمًا تريد كل شيء حولك كما تريد أنت، ولا يهم الآخرين، ولا أنا.

أعدك أنني سأتوقف عن الكتابة الآن، فقد أطلت عليك وبداخلي الكثير، ولكن مهما كتبت، وقلت فلن أستطيع أن أصف لك كمَّ الألم الذي سببه لي حبك، فهذا خطابي الأخير لك، وإن كانت البداية أحبك، فالنهاية أيضًا أحبك، ولكن لم أعد أريدك.

أغلقت هاتفها، وأغلقت معه قلبها على جرحه وحبه، وأخذت تلقي بالخطاب في صندوق البريد، وتلقي معه إحساسًا غير مؤكد بالحب، وصرخات قلب عانى من ذلك الإحساس.

تلقى خطابها بصدمة، كادت أن تجعله يغشى عليه. لم يكن يتوقع ذلك منها، فقد تعوَّد دائمًا أنه مهما فعل، تعود له مرة أخرى، ولكن يبدو أنه أخطأ هذه المرة. ففي هذه المرة، حاولت أن تثبت له أن الأمور لا تسير دائمًا كما يريدها هو، وأنَّ لها كيانها المستقل، وإن كانت تسامح وتعفو، فذلك كان باسم شيء ما يدعى الحب، ولكن أيَّ حبٍّ الآن، فقد هدم بيده كل شيء، وجلس يبكي، ولأول مرة من أجلها، فكم تسبب في بكائها وعذابها، فليذق مرارة الألم الآن وحده، وتطوي هي صفحته من حياتها، وليبق هو في عالمه يغيِّره حسبما يشاء، أما هي فلن تبقى دائما كما يشاء.

رجعت بيتها، فوجدت بحديقتها زهرة جديدة تتفتح أوراقها للحياة، بشرى من الحياة لها بالأمل. مرت أيام، تليفون المنزل لم يتوقف عن الرنين، فكلما نظرت إلى شاشة التليفون، وجدت رقمه، فتقرر عدم الرد عليه، ورفعت سماعة التليفون؛ حتى لا يزعجها رنينه مرة أخرى، ولكن ما هي إلَّا دقائق معدودة، وتبدل برنين الهاتف رنين جرس الباب. فتحت فوجدته أمامها، بعين ملأتها الدموع تطلب منها السَّماح، ولأول مرة كانت تلمح بعينه الدموع، كادت تضعف أمامه، وتمسح له دموعه، وتفتح له ذراعيها؛ ليهدأ

بين أحضانها، وتربت على ظهره كطفل صغير عاد إلى حضن أمه، ولكنها لن تفعل، فلطالما فعلت، ولكن بلا جدوى. ظلت واقفة أمامه صامتة، يتكلم ولا تجيب.

وعندما أنهى كلامه، قررت أن تغلق الباب بكل هدوء وصمت، فقد نفذ صبرها عليه، وقد نفذت كل الفرص، وتعب قلبها، وآن الأوان أن يهدأ ويرتاح...

الحكاية السَّادسة...

أحبَّني لتعرف من أنا...

(رفيقة القمر)

أتعلم أيها القمر، أنني أشبهك تمامًا؟ أنت تحيا وحيدًا في كبد السَّماء، برغم كثرة النجوم حولك مثلي تمامًا تعتريني الوحدة، برغم كثرة من حولي. ليس هذا فقط ما أشبهك فيه، فأنت أيها القمر، ليس من السهل الوصول إليك، عندما كنت صغيرة كنت أقول لنفسي كم سلمًا سأحتاج لأصل إليك، وبالرغم من أنه لم يعد الوصول إليك صعبًا الآن إلَّا أنه ليس كل من تمنى الوصول إليك يصلك، مثلي تمامًا فأنا امرأة صعب الوصول إليها، ليس كل من يتمناها يسهل له الوصول إلى قلبها وعقلها، فأنا يا رفيقي، امرأة صعبة المنال، هناك من يتمناني رفيقة دربه، لكن لم أجد سواك رفيقي، كم أنت محظوظ أني اتخذتك رفيقًا، وواقفة أمامك أحدثك عن حالي.

أيها القمر، هل تسمعني؟ أين اختفيت؟ لماذا تهرب مني وتتوارى بين تلك الغمامات؟ ألم يعجبك حديثي، أم ناداك شاب وحيد واقف في شرفته؛ لكي يقص لك أقصوصته.

يا أيها الشاب الذي أعشقه بخيالي، إن كنت تسمعني، أحبَّني لتعرف من أنا. قد أكون تلك الفتاة التي زارتك يومًا في منامك أو لا أكون. قد أشبهها وتلمح فيَّ جزءًا منها أو لا أشبهها، ولكنه حتمًا سيتبيَّن لك حينها من أكون، فقط أحبني في خيالك، وحينها ستعرف وحدك من أنا. قد نلتقي يومًا تحت المطر، أو ساعة الغروب عند البحر، ولكنه حتمًا سنلتقي يومًا.

هكذا هو حال رفيقة القمر، تجلس وحيدة على حافة شباكها ترقب القمر من بعيد، تنتظرك أن تأتي حاملا باقة من الورود الحمراء التي تحبها، تراك أحيانًا جالسًا فوق السَّحاب تمدُّ يدك إليها؛ لترفعها بجوارك. تنتظرك، وتتمنى أن تراك، وتحبها، وتعرف من هي... لا تتركها تنتظر كثيرًا، ولا تتردَّد في المجيء، فمجيئك يسعدها، ولكنه يحييك.

غاب عنها القمر كثيرًا، وأنذرت السَّماء بهطول المطر، فهذه هي فرصتها الكبرى؛ لتنزل إلى الشارع، تركض كالأطفال الصِّغار. أخذت تجري وكأنها هاربة من شيء ما، من أحزانها، وهمومها، ومن أي شيء يعكر صفو حياتها، هاربة من ذاتها اللحوحة التي تلاحقها بالأسئلة، ومن الذين حولها، ومن كل شيء. ولكن ربما السَّماء لم تهطل مطرًا فقط، فقد أرسلت إليها رفيقًا جديدًا يركض هو الآخر تحت المطر، قد يكون هاربًا مثلها، تصطدم به بقوة أثناء جريها. نظرت له في خجل وارتباك: " آسفة جدًّا".

– آنسة مريم.

– إنتَ تعرفني، أنا حسام جاركم في الدور السابع. كنت واقف في البلكونة، شوفت الدنيا مطرت نزلت أجري تحت المطر، وانتِ نازلة ليه في الوقت ده.

– نفس السبب اللي نزلك نزلني، همست القمر.

– أيُّ قمر.

– رفيقك.

– مش فاهم.

وقف متعجبًا عندما وجدها تنظر إلى السَّماء، وتمتم بكلام لم يفهمه. وقف متحيرًا في أمرها. ربما حسِبها مجنونة، فأيُّ شخص في مكانه سيفكر في ذلك.

طلب منها أن تجري معه تحت المطر، فوافقت. سألته عن أي شيء كان يحدِّث به القمر قبل قليل، وقبل أن يجيب، أجابت هي: "كنت تشكي له وحدتك، وأنك تشبهه تمامًا" نظر إليها مندهشًا.

– من أين عرفتِ كل هذا؟

– فأجابته: القمر، القمر رفيق دربي أخبرني. عندما غاب القمر بين الغيوم، ظننت أنَّ هناك شابًّا ناداه ليسمعه.

– وأنا عندما غاب، اعتقدت أنَّ هناك فتاة جميلة تتحدث إليه، فالقمر هو الوحيد الذي يمكنه سماعنا دون أن يمل.

– والبحر أيضًا. أنظر إلى السَّماء، غاب القمر بين الغيوم تمامًا.

– ربما أراد أن يبلغنا رسالة.

– أيُّ رسالة؟

– أن اتخذك رفيقة بدلا منه، و يبقى القمر أيضًا رفيقنا.

نظرت له مبتسمة، ثم نظرت إلى السَّماء..فقال لها لا تنتظريه الليلة ربما ذهب لفتاة أخرى تشكي له همها، أو شاب مثلي بحاجه إليه.

استيقظت من نومها في ساعة متأخرة من الليل، اتجهت مسرعة نحو شرفتها، كان القمر ظاهرًا ولكنه توارى خلف السَّحاب، فنظرت إلى الشرفة التي تعلو شرفتها... كان هناك شخص واقف ينظر إلى السَّماء.

ربما هو من رأته بمنامها، ضحكت عندما تذكرت أنَّ كل ما حدث، كان حلمًا، ولكن السَّماء تنذر بهطول المطر لعل الحلم سيتحقق. ارتدت معطفها، ونزلت؛ لتجعل حلمها حقيقة. أخذت تدور وتدور تحت المطر، مغمضة عينيها، ذاهبة لعالم آخر، ولكنها يبدو أنها أفاقت على حلم آخر غير الذي رأته، فكل ما رأته بمنامها حدث بالفعل، إلَّا ذلك الشاب الذي رأته. أين هو يا ترى؟ هل سيأتي بعد قليل أم أنني لن أراه سوى في أحلامي؟ كانت تسأل نفسها، وتنظر للسَّماء علَّها ترى القمر، ولكنها لم تره، ولم تر رفيقها. شعرت بوقع خطوات يقترب منها، ظلت تدور غير مبالية بالقادم ناحيتها علَّه حبيبها الذي تنتظره، ولكنها أفاقت من حلمها الوردي، فوجدت أمامها كهلا قد تجاوز الستين:

– خير يا مريم يا بنتي، إيه اللي منزلك دلوقت؟

– فأجابته بشفاهها المرتعشة: هه، حضرتك تعرفني؟!

– فأجابها: أيوة يا بنتي سمعت البواب مرة بينادكِ؛ عشان يديكِ الجرايد، أنا جاركم الجديد في الدور السابع، اسمي عمك حسام.

كتمت مريم ضحكتها، وذهبت دون أن تجيب على سؤاله. دخلت غرفتها، وأغلقت بابها، وأطلقت سراح ضحكاتها المكتومة، ونامت علَّها تحلم حلمًا آخرًا، وكلما رأت العم حسام أدارت وجهها عنه؛ حتى لا يرى ضحكاتها المكتومة التي لا يعرف سرها كلما رآها...

دعني أحترمك أولًا

كانت الفرحة الأولى لوالديها، ولكن يبدو أنها أسعدتهم بمجيئها، فأتعسوها في حياتها. فعندما أبصرت دنياها وحياتها، وجدت أمها امرأة تعسة حزينة، وأبوها رجلًا قاسيًا يكاد يطيح بأي شيء أمامه في لحظة غضب، حتى أمها لم تسلم من يده الطائشة، ولا حتى هي أيضًا. لم يكن يتعدى عمرها الخمس سنوات، عندما كانت ترى أمها تضرب وتُهان، فتقف في زاوية بعيدة تشاهد المنظر من بعيد، وهي تبكي.

لا تستطيع فعل شيء كي تحمي أمها الضعيفة من بطش أبيها، الذي كانت تراه دائمًا رجلًا قاسيًا عنيفًا.

تكرر المشهد أمامها عدة مرات، ولا تستطيع فعل شيء سوى البكاء والنحيب، علَّه يرى بكاءها فيحنُّ قلبه، ويكف عن ضربه لأمها من أجلها، ولكنه لا يفعل ذلك، وما إن كبرت قليلا، وتملكتها الجرأة – ربما قليلا– أن تقول: "لاء حرام عليك يا بابا، متضربش ماما".

فكان مصيرها مثل مصير أمها الضرب، والأهانة، والحبس، والإذلال، كأنها ارتكبت جريمة لا تغتفر. كانت ترى أمها مثالًا للمرأة الصَّبورة التي تحمَّلت الكثير والكثير من أجلها، تحمَّلت ما قد لا تتحمله امرأة أخرى، فقد تحمَّلت كل ذلك من أجلها حتى لا تعيش مشرَّدة في حياتها، ولكن عندما نضج تفكيرها ووعيت للحياة، اكتشفت أنَّ أمها ارتكبت خطأ فادحًا في حقها، وفي حق نفسها، عندما تحمَّلت تلك الحياة التعيسة، وكل ما تحمله من ضرب وإهانة. أخطأت حينما سمحت بإهدار كرامتها وحقها، أخطأت عندما تركتها ترى كل تلك المشاهد وهي صغيرة، التي بدورها جعلتها تكره كل الرِّجال وتراهم نسخة من أبيها، فقد كان ذلك المسلسل من الحياة التعيسة التي ظلت ترى مشاهده كل يوم، أقوى الأسباب التي منعتها من الزواج، فقد بلغ عمرها الخامسة والعشرين، تزوجت جميع صديقاتها وأنجبن، أما هي، فرفضت أن تكون نسخة مكررة من أمها، أو نسخة لإحدى صديقاتها التي كثرت مشاكلهن بعد زواجهن.

فواحدة تشكي من عدم اهتمام زوجها بها، وثانية تشكي من قسوته عليها وإهانته لها، وثالثة تشتكي من تسلط وجبروت حماتها، ورابعة تشكي من زوجها الذي تطغى أمه على شخصيته وتبديه بلا شخصية أمامها...

وغيرها من المسلسلات التي تدور في كل بيت، قد يختلف المؤدون، وقد تختلف الأدوار، وقد تختلف المشاكل، ولكن القضية واحدة وواضحة، وهي "الحياة التعيسة لهم ولأبنائهم ".

كل تلك العوامل، كانت كفيلة لتكون سببا قويًّا لما وصلت إليه من مخاوف تمنعها من الزواج. لقد أصبحت عقدتها في الحياة، شبح يخيفها، اسمه: "الزواج". فلم تُجدِ نصائح أمها معها نفعًا؛ لأنها لن تستطيع أن تصبر على الإهانة، مثلما صبرت أمها وتحمَّلت. مهما كانت الأسباب التي تدفعها لذلك، فهي لن تستطيع تحت أي ظرف من الظروف، أن تكون مسخرة في يوم من الأيام لأي رجل.

كيف لها أن تخضع ذاتها، وكرامتها، وشخصيتها، وتقدمها قربانًا تحت قدميه؛ لمجرد أن تعيش تحت ظلاله؟

أو كما يقول المثل "ضل راجل، ولا ضل حيطة".

ربما ظروف أمها حين ذاك، لم تسمح لها بالفرار منه، وطلب الطلاق، ربما لم تمتلك مسكنًا آخر سوى مسكن زوجها، أو السجن الذي يديره زوجها، فلا فرق بين هذا وذاك، وربما لم تمتلك الجرأة الكافية، لتطلب الطلاق خوفًا من أن يظلمها مجتمعها هو الآخر، ويلومون عليها فعلتها، ويتهمونها بعدم الحفاظ على بيتها.

فكفاها حينها ظلم واحد، فلم تكن باستطاعتها تحمُّل ظلم آخر من مجتمعها، أما هي، فقررت ألَّا تسمح لشخص مهما كان، أن يهدر كرامتها مهما كانت الظروف والأسباب، فلا شيء بعد كرامتها سوى موتها.

لم تحزن كثيرًا لموت والدها، الذي لم يهدأ لسانه السليط، ويكف عن السباب حتى في آخر أيامه، مات والدها، ولكن لم تمت الذكريات الكئيبة التي تركها لها، والعقد النفسية التي سبَّبها لها، والتي لا تستطيع التخلص منها، والتخلص من الهواجس التي تعلق بذهنها عندما يتقدم لها أحد ليطلب يدها للزواج، فترفضه لمجرد هاجس أن يكون مثل أبيها الذي لم يمنحها ولو فرصة؛ لكي تكِنَّ له بعض الاحترام، أو الحب، أو مثل أحد أزواج صديقاتها وأقربائها.

و لكن كلما تقدم بها العمر، يزداد شوقها ليكون لديها طفل تهدهده، وتراه يكبر أمامها مثل باقي صديقتها،

فكم أصبحت شغوفة ومتشوقة لهذا الشعور بالأمومة، فكلما رأت أطفال صديقاتها يزداد شوقها لهذا الإحساس.

ولعل ذلك كان سببًا ودافعًا قويًّا لتعيد تفكيرها بمسألة الزواج، وأن تمنح نفسها فرصة ترى فيها الدنيا بلون مختلف. ربما تجد الشخص المختلف عن هؤلاء، الذي يغير تلك الصورة التي علقت بذهنها طوال الأعوام الماضية، وحتى إن وجدته مثلهم فلن تكون هي مثلهن، وتطأطئ رأسها في الأرض كما تفعل النعامة.

وها قد مرَّ عامان، وأصبحت في السابعة والعشرين من عمرها، وفي هذه الفترة كانت قد توطدت علاقتها بزميلة لها بقسم العلاقات العامة بالشركة التي تعمل بها هي الأخرى، توطدت علاقتهما إلى أن تطورت سريعًا لصداقة حميمة.

وفي يوم مر عليها بالعمل أخو زوجها، ذلك الطبيب النفسي الذي لا يتجاوز عمره التاسعة والعشرين، والذي كانت كثيرة الكلام عنه، وعن الحالات التي عالجها. جاء ليقوم بتوصيلها إلى بيتها خوفًا عليها من الزحام، خصوصًا أنها حامل في شهرها السابع،

لأن أخاه أوصاه عليها قبل سفره، فقد كان كل يوم يمر ليأخذها. كانت دائمًا ترفض أن يوصلها خوفًا من هواجسها التي لا تتركها وحالها، إلَّا أنها رغم تلك الهواجس، لم تنكر إعجابها به، وبشخصيته التي كانت تحكي عنها دائمًا زوجة أخيه، والتي لمحت لها هي الأخرى عن إعجابه بها، وخصوصًا عندما زارتها بالمستشفى عندما وضعت طفلها.

وعندما أتت لتساعدها في حفل السُّبوع، وربما كان ذلك الحفل فرصة ليتحدثا معًا أكثر،

فبدا أنه معجب بحديثها، وبدت هي كذلك، إلَّا أن هواجسها بدأت تستيقظ من ثباتها لتوقظها هي الأخرى من لحظة السعادة تلك. أصبحت تدور الهواجس بعقلها، فما يدريها فقد يكون مثل كل الرِّجال الذين سمعت عنهم، ففي هذه المرحلة لا يُظهر الرَّجل سوى كل حسن، ويحاول دائمًا إخفاء مساوئه التي تظهر تدريجيًّا بعد الزواج، لكن فلتجرب، ففي كلتا الحالتين لن تسمح لنفسها لأن تكون مثل أمها وصديقاتها.

سرعان ما صارحها بكل شيء، وتمت خطبتهما التي دامت ثلاثة أشهر، تمَّ بعدها الزفاف،

لم تر فيهم منه سوى كل خير، فقد كان أحنَّ عليها ممَّا تتصور.

لكن الأمر لا يسلم، فعليها أن تأخذ حذرها منه.

حاولت بعد زواجها أن تكون هي الشخص المسيطر والمتحكم في كل شيء، لكنه لم يدع لها الفرصة لتفعل ذلك، فرزانة عقله، وحنانه عليها، وتفاهمه معها، وتخطيهما لما يمر بهما من مشاكل بهدوء وتفاهم، لم يجعلها تفعل إلَّا أن تعيش تحت رايته... مستسلمة له ولحبه.

فأغدقت عليه كل ما تملك من مشاعر، من حب وحنان، وسرعان ما تبدَّدت هواجسها، وذهبت لحالها.

وأيقنت حينها أن هناك صنفًا مختلفًا من الرِّجال، يختلف عن أبيها، وهؤلاء الأصناف التي سمعت وقرأت عنهم، فربما كانت هي سعيدة الحظ أنها قابلت هذا الصنف المختلف، وربما كان مكافأة لصبرها وشقائها في حياتها الماضية،

التي ودعتها حينما التقت بحبيبها، وزوجها...

لا تعرفه...

ولا يعرفها...

تلمح في طريقها لمقر عملها لافتات مكتوب عليها: "سيقام احتفال يوم اليتيم العربي ،أول جمعة من أبريل" وإذا بورقة تلقى عليها من شباك سيارتها، تجد بها نفس الإعلان، ومقر الحفل. شعرت حينها بغصَّة تعتصرها، ودموع بعينها على وشك الانهمار. شعرت حينها بالمرارة التي يعانيها الطفل اليتيم؛ لأنها ذاقتها من قبل، وأحست كم من المؤلم أن يتربى طفل دون أب، أو أم، أو كليهما، فيعيش دائما بحاجه إلى الأمان، الحنان، والدفء، الذي يفقده بفقدهم، ويظل يبحث عنهم طوال حياته في شخص آخر، يعوِّض له ما فقده، فلا يجد من يضاهي كل ذلك فيعيش يتيمًا طوال عمره.

قررت في تلك اللحظة، أن تذهب إلى هذا الحفل، وأن تكون بجوار هؤلاء الأطفال الذين هم بحاجتها مثلما هي بحاجتهم. استكملت طريقها إلى العمل، وعندما وصلت أخذت ترتب كيف ستذهب، وتفكر بالهدايا التي ستأخذها معها لهؤلاء الأطفال. تذكرت أن يوم الجمعة هو غدًا، اشترت هدايا كثيرة، وذهبت للحفل في اليوم التالي.

جلست في أول الصف الثاني من القاعة، وبدأ الحفل وبدأت معه دموعها التي كانت تحاول سجنها بعينها طوال الوقت؛ خشية أن تنهمر رغمًا عنها. ابتدأ الحفل بمقطوعة موسيقية يعزفها شابٌّ على البيانو، كانت تحمل كل معاني الحزن والشجن، لم يتبين لها حينها من هو الشاب الذي يعزف تلك المقطوعة، والتي أدمت قلوب كل الموجودين، وليس هي فقط، وفجأة تعانقت نظرات أعينهما الدامعة، وهمس بداخلها يردِّد: "أحمد" زميلها الانطوائي الذي كان يجلس دائمًا بمفرده، لكنه ربما لن يتذكرها، فقد مرت خمس سنوات على تخرجهما. انتهت المقطوعة التي أبكت الجميع، والتي كانت قادرة على مزج دموعهم بالتصفيق الحار.

غنى الأطفال بعد ذلك على عزفه الذي أطرب أذنيها كثيرًا، وبعد انتهاء الحفل قررت أن تذهب له، وتحييه على عزفه، ولكنها كانت تخشى عدم تذكره لها، وينتابها حينها الحرج، فذهبت لتقدم الهدايا للأطفال، وكان هو واقفًا على مقربة منها. أدركت أنه لم يتذكرها بعد فلم تبال بالأمر، فإذا بصوت يأتي من خلفها متسائلا: "سارة؟" فتلتفت له مجيبة بابتسامة مرسومة على شفتيها: "نعم، أنا سارة" فتسأله: "أحمد؟" فيرد عليها بالإيجاب.

فأثنت على عزفه وتضامنه مع هؤلاء الأطفال الأيتام، لم تكن سارة تعلم عن أحمد شيئًا، سوى أنه زميلها، وأنه شخص انطوائي يجلس دائمًا بمفرده، ونادرًا ما تجده وسط مجموعة من الأصدقاء، بالإضافة إلى أنه كان دائمًا الأول على الدفعة، وكان أحيانًا يعيرها كشكول محاضرته. كان دائمًا يأسرها بهدوئه، وتفوقه، وأخلاقه العالية، لكنها لم تكن تعلم عن موهبته بعزف البيانو، استدرك ما يجول بخاطرها، واستطرد قائلا: "تعلمت عزف البيانو من والدتي رحمها الله، وقررت استغلال تلك الموهبة في خدمة هؤلاء الأطفال".

لم تكن تعلم سر انطوائه وانغلاقه على ذاته، ولكنها عرفته حينما علمت أنَّ والده توفي قبل أن يراه، وأنَّ والدته توفيت منذ خمس سنوات عقب تخرجه مباشرة.

أدركت حينها ذلك السر الذي يجعله دائمًا حزينًا، وحيدًا مثلها، عندما تودع أصدقاءها، وتذهب إلى بيتها، وتنظر إلى الصور المعلقة على حيطانه تؤطرها أشرطة سوداء، وبينهما صورتها التي لا تعلم متى سيوضع عليها ذلك الشريط الأسود.

أدرك أحمد شرودها فسألها عن السبب، قصت له قصتها التي تشبه قصته كثيرًا، ولكنها في نظرها أكثر مرارة. خانتها دموعها، وسقطت رغمًا عنها، فقاطعتها طفلة صغيرة جميلة تسألها كيف تجعل دميتها تتكلم، فانحت لتقبل تلك الصغيرة الجميلة، وأخذت منها دميتها ووضعت بداخلها البطارية، فنطقت:

"ماما، ماما" فأعطتها لها، وقبَّلتها الصغيرة، فضمتها إليها، وسألتها عن اسمها، قالت: "سارة" دمعت عيناها، وقالت لها: "اسمي سارة أيضًا". أخذت تلك الطفلة تجفف لها دموعها بيدها الصغيرة، وقالت لها بلهجة طفولية جميلة: "متعيطيش؛ عشان أجبلك شيكولاتة" ارتسمت على شفتيها ابتسامة صافية، قبَّلت الصغيرة، وتركتها تلعب مع أصدقائها.

دار ذلك المشهد أمام عيني أحمد، الذي اكتشف فيه ولأول مرة شخصية سارة بعد خمس سنوات من تخرجهما، فرغم سنوات الدراسة التي مرت عليهما، لم يكن يعرف عنها شيئًا، ولم تكن تعرف عنه شيئًا سوى أنهما زملاء بالدراسة. ندم على سنوات انغلاقه على ذاته، وعدم تقربه منها، فكم هو بحاجة لإنسانة مثلها، تشعر بمرارة ما عاناه، ويظنها أيضًا بحاجة إلى شخص مثله يقدر ما عانته .

ودعته سارة بابتسامة، أيقن أنها نابعة من قلبها، قابلها هو بابتسامة متمنيًا أن يلقاها قريبًا في حفل آخر يقوم هو بالعزف فيه، أومأت برأسها، وابتسمت، ومضت...

الحكاية التَّاسعة...

طيبة، بدرجة ملاك...

كانت طيبتها، هي سبب حيرتها في هذه الدنيا، فمنذ أن كانت صغيرة، كانت تسمع أناسًا يقولون لأمها "بنتك دي طيبة أوي، أطيب حد في ولادك...".

كانت عندما تسمعهم يقولون ذلك تفرح؛ لأنها لم تكن تدرك بعدُ ماذا تعني تلك الكلمة في هذا الزمن، لم تدرك أبدًا أنَّ تلك الكلمة ستتغير بمرور الزمن، فقد كانت بحنان وطيبة الملائكة، وبراءة الأطفال التي لم تتعكر براءتهم بعد بغبار الزمن وخداع الدنيا، ولم تتلوَّن بعد بقسوتها، فمنذ أن كانت صغيرة كان يحبها جميع معلميها، زملائها، أصدقائها وأناس آخرين لم تكن تعرفهم، لكنها كانت تلمح على وجوههم الحب الذي أدركت بعد ذلك، أن تلك الوجوه كانت وجوهًا زائفة، فكل منهم يملك ألف وجه، يظهر الوجه الذي يريده في الوقت الذي يرونه مناسبًا، فقد كانت ترى الدنيا غير ما يراها الناس. كانت تعتقد أن الناس كلهم ملائكة على الأرض، أو بمعنى أصح كل من يحيطون بها ملائكة من نور، لا يخطئون، ولا يصح أن يخطئوا بحقها، لكنها كبرت، وكلما كبرت زاد كرهها للدنيا بمن فيها. تخلت عن بعض الأشياء، شعرها الحرير المنسدل على ظهرها – الذي كان الجميع يحسدها عليه– سترته بحجاب فزادها جمالًا وملائكية. كنت إذا رأيتها، رأيت ابتسامة دائمة على وجهها، وحب الحياة والناس يفيض من عينيها اللامعة بالحب والبراءة، التي قد لا تجدها في فتاة مثلها، فمازلت بعد نقية. كانت لا تصدق أبدًا أن يخدعها من حولها، فكانت تلتمس لهم الأعذار دائما، ولا تظن السوء بأحد أبدًا مهما حاول الآخرون إقناعها بالحذر من أشخاص محيطين بها، ربما لم تقتنع لعدم خبرتها الكافية في الحياة أو لسذاجتها من وجهة نظر الآخرين. كان البعض الآخر من المحيطين بها يقدِّرون طيبتها ويصفونها أنها الفتاة الصَّح التي جاءت في الزمن الخطأ، حيث لا أحد يفكر بالطريقة الملائكية التي تفكر بها، والعفوية التي تتصرف بها، إلَّا أنها ومع مرور الوقت، بدأت تفوق تدريجيًّا من غفوتها، وتدرك الواقع الذي أدركها قبل أن تدركه هي، فكانت الصدمات تتوالى عليها الواحدة تلو الأخرى، ما كانت تعتقد أبدًا أن تأتي صدماتها من أقرب الناس إليها، التي كانت في سبيلهم تعطي، ولا تنتظر الأخذ. أناس لم تكن تريد منهم غير الصداقة والحب مقابل الحب، لكن كان حبهم من نوع آخر، حب مؤقت من أجل شيء ما. أصبحت متخبطة لا تدري إن كانت هي الصواب أم الخطأ، فهي لم تكن مخطئة في حبها للناس، لكنها ربما أخطئت عندما اعتقدت أنَّ هؤلاء الناس ملائكة من نور، يعيشون على الأرض، يفكرون ويتعاملون بنفس طيبتها، لكنها أخيرًا أدركت أنها الملاك الوحيد في هذه الدنيا، أو الساذجة الوحيدة، ربما كانت الغبية التي لم تدرك الحياة جيدًا، والتي اكتشفت مؤخرًا أنها غابة من البشر.

أصبحت أكثر خوفًا، وحزنًا، وقلقًا أن يموت هذا الملاك البريء بداخلها، خائفة من أن تقتله بيدها، أو يقتله الآخرون فيها، ويتحول الملاك ليكون مثلهم أكثر قسوة، وصلابة، وأنانية، وغيرة، وحقدًا، واستغلالًا. فبدأت ثقتها بنفسها تقل تدريجيًّا، وبالتالي أصبحت أكثر انغلاقا على ذاتها؛ لأنها أدركت أنها وحيدة غريبة، تعيش وحدها في هذا العالم، برغم كثرة من يحيطون بها، إلَّا أنها لم تجد فيهم ذاتها الحيرى. دائمًا كانت تحاصرها تساؤلا ت تنبع من داخلها.

لم تعد تدري إن كان العيب فيها، أم في الحياة، أم في الزمن الذي جاءت فيه، فبعد أن كانت الابتسامة لا تفارقها، والفرحة تملؤها. أصبح الحزن دائمًا مرسومًا على وجهها، وغلفت الدموع عينيها، وبما أنها أخيرًا أدركت أنها تعيش في دنيا البشر، وبما أنَّ الملائكة لا يعيشون على الأرض، فقد قررت أن تطلق عنان الملاك بداخلها، ليصعد ويعيش مع قرنائه في السَّماء، وتبقى هي على الأرض مثلها مثل باقي البشر التي هي منهم، ومستحيل أن تنفصل عنهم، لكن للأسف في كل مرة يرفض الملاك تركها، لم يجد ملجأ سوى قلبها، ينام هادئًا مطمئنًا به، ولكنه كان يتعبها كثيرًا، ويسبب لها متاعب لا حصر لها. ظلت بهذه الحالة تحاول وتبوء محاولتها بالفشل. كل مرة تقرر أن تتخلى عن تلك الطيبة الزائدة، وتعامل الدنيا بمبدئها، ولكن كان الملاك بداخلها ينتصر على إرادتها بالتغيير، فبدت وكأنها أكثر حدة وجدية في تعاملاتها، ربما حاولت تقمص هذا الدور حتى تستطيع التأقلم والعيش في هذه الدنيا، التي لم تعد ترى لها أي معنى، لم تعد تلمح أي بريق يضفي على الحياة معنى جديد، فكل شيء أصبح في حياتها بلا

معنى، الحب بلا معنى، والناس بلا معنى، حتى هي صارت وكأنها بلا معنى. تتحطم أحلامها أمامها لتصبح رمادًا، وتتوالى الصدمات عليها ،فتحدث جروحًا بقلبها، علاجها يحتاج وقتًا طويلًا، ربما عمر فوق عمرها كي تضمد جراحها، ويسكن الألم بها. تغيرت لكن ربما قليلا، لم تعد تثق بأي أحد، ولا تعطي الأمان لأي شخص؛ خوفا أن تزداد صدماتها. ظلت هكذا إلى أن جاء هو، جاء ليأخذ بيدها، ويخرجها من دوامة حيرتها، ولكن خوفها وثقتها في الناس بدأت تقل إلى أن انعدمت تدريجيًا. كان كل ذلك يمنعها من الاقتراب منه، ولكنه استطاع بكل ثقة أن يعيد لها ثقتها بنفسها، وثقتها بالآخرين، فكان دائمًا يؤكد لها أنها الصواب، ولكنها جاءت في زمن خطأ، وأنَّ تصرفاتها البريئة يفهمها الآخرون بمعان أخرى، فقد كان يرى من خلف زجاج نظارتها الشمسية عينين يملأها الحزن والحيرة، التي تحاول إخفاءهما دائمًا بتلك النظارة، وأنَّ وراء تلك القسوة، والجدية، والحدَّة في التعامل، قلبًا أبيض نقيًّا يملأه الحنان. اقترب منها أكثر، وتأكد له إحساسه أنَّ قلبها أقرب في طيبته إلى الملائكة، عندما لاحظها دون أن تدري وهي جالسة وحدها تبكي، وهي تستمع إلى أغنية جوليا بطرس: "هالوردة دبلت بكير حلوة بعدها حلوة كتير ما عادت شافت هالشمس والدنيا كلا مشاوير... قولي بحالك شو صار هالعمر الباقي مشوار ... مشوار طويل قلبك بهالدنيا احتار بعرف في عندك أسرار حملني الربيع أخبار فيها ألوان عصافير" حينها أدرك أنه لم يخطئ في إحساسه بها، فقررت أن تمنح الدنيا وتمنحه فرصة أخيرة، فإذا اتحد هو والدنيا عليها هذه المرة، سترحل عنها فذلك أهون بكثير من أن تتحلى بصفاتها، سيتعلق قلبها الملائكي الذي لا يزال طفلًا به الكثير، وعيناها أصبحت لا ترى في الدنيا سواه، وتمر الأيام، ويأتي هو ليقول لها:

– ياسمين... أنا... وبعد تردُّد... أنا جالي عقد عمل في دولة عربية وهسافر.

انتابتها لحظة صمت واندهاش، كاد فيها قلبها أن يتوقف عن الخفقان،

وتذكرت ذلك المشهد الذي ودعها فيه حبيبها السابق، وتركها بلا أسباب.

وفي هذه اللحظة، شعرت باقتراب موعد موت الملاك وموتها،

ثم نظرت إليه، والدموع تملأ عينها:

– طب وأنا...

– هتكوني معايا.

– إزاي يعني.

لحظه صمت...

– تتجوزيني...

تحولت دموع حزنها إلى دموع الفرح، التي سقطت منها رغمًا عنها، وامتزجت دموعها بابتساماتها وضحكها...

الحكاية العاشرة...

الكشكول الأزرق

أتعلم كم اشتقت لرؤيتك؟ كم اشتقت لمأمني؟ أتعلم ما هو مأمني؟ هو حضنك الدافئ، الذي يأخذني من عالمي إلى عالمك. اشتقت لرائحتك وعطرك الذي أعشقه. اشتقت لهمساتك وصوتك العذب الحنون. اشتقت لألحانك وكتبك التي تقرأها، وكل شيء يربطني بك. اشتقت إلى نفسي التي لا أجدها إلَّا بقربك... كم أنا معدمة بدونك، أقضي يومي بين غسيل الأطباق، وتنظيف المنزل، وطهي الطعام. أشعر وكأنني سندريلا، ولكن سندريلا وجدت السَّاحرة التي تخلصها من كل شيء، وتأتي بها إليك. أما أنا فلم أجد سوى هذا الكشكول الأزرق لأنعي لك فيه همومي وأحزاني بدونك. أتعلم أنَّ أكثر ما يعذبني هو بعدك عني؟ أشعر أنَّ هناك مسافات طويلة تبعدني عنك، وأنا مكبلة لا استطيع الوصول إليك، ربما تشعر بما أشعر به الآن، ربما تفعل مثلي الآن، وتكتب لي في كشكولك الأزرق، وتتساقط الدموع من عينيك من شدة الحنين. لا أعلم إن كنت أزورك بالمنام مثلما تزورني أنت أم لا، ولكني أريدك أن تعلم أنني أحلم بك كل يوم، بل إنني أشتاق للنوم حتى أراك. أتعلم ماذا حلمت ليلة أمس؟ حلمت بك توقظني من نومي بحنان شديد، وكأنك تخاف أن توقظني. وعندما استيقظت، طبعت قبلتك على جبيني، فشعرت حينها أنني مازلت أحيا؛ لأنك تمنحني الحياة بحبك وحنانك. لا أعلم متى سيكون لقاؤنا لأخبرك بما أشعر به. لا أعلم إن كان لساني سيتلعثم حينها أم لا، ولكن إن حدث ذلك ووقفت أمامك عاجزة عن الكلام، أعلم أنك ستشعر بحبي لك، ربما من نظراتي الخجولة، ربما يعلو صوت دقات قلبي المتتالية فتسمعه... لكني أعلم أنك ستعلم حينها كم أحبك. لقد حان وقت إعداد الطعام، سوف أتركك الآن ولكنك ستظل دائما بقلبي وعقلي. أتعلم أنهم يقولون لي أني طاهية ماهرة؟ أتعلم ما هو السر في ذلك؟ هو أنت يا عشقي الوحيد، فانا أطهو الطعام بنكهتك، وهذا ما يجعله أشهى وألذ، أحبك كثيرًا.

تسمَّرت نهى بمكانها، عندما رأت كشكولها الأزرق بيد زوجها، أمام نظرات عينيه التي ينبعث منها الشر، وقفت صامتة. كادت نظراته الحارقة تصهرها في مكانها. وقفت عاجزة عن قول أي شيء، لكنها تمالكت قواها قبل أن ينطق لسانه بكلمة واحدة تهين كرامتها، أو أي اتهام ينسبه إليها، لكن قبل أن تنطق بحرف واحد، قال كلمة وحيدة: "إنتِ طالق". لم يمنحها فرصة لتدافع عن نفسها، ولكنها تمالكت قواها مرة أخرى؛ لتدافع عن نفسها.

أعلم ما دار برأسك عندما قرأت ما بهذا الكشكول، لكن قبل أن تنعتني بالخيانة، فإنَّ كل ما كتبته بهذا الكشكول هو لك أنتَ، لم أعشق بحياتي غيرك، ولم يقتحم رجل حياتي غيرك، ولكني اكتشفت أنَّ الشخص الذي أحببته ثلاث سنوات، وتزوجته، هو شخص آخر غير الذي عرفته، ففضلت أن أعشقك كما كنت، ولكن بخيالي. كم من مرة أعددت لك عشاء رومانسيًّا، وتقابل ما أفعله باستهزاء وسخرية، وتسألني: "من أي فيلم رومانسي اقتبستِ تلك الفكرة" فتقتل بكلامك فرحتي بعودتك إليَّ؟ كم كنت أنتظرك لتأتي يوم عيد ميلادي حاملا باقة من الزهور، وتقول لي: "كل سنة وأنتِ طيبة" لكنك لم تفعل؛ لأنك دائمًا تنساه. لا أدري لماذا أصبحت تنساه بالرغم أنك الذي كنت تذكرني به من قبل. كم مرة تحملت معاملتك الجافة، عندما اتصل بك لأطمئن عليك في عملك، فإما تؤثر عدم الرد فيزداد قلقي، أو ترد لتدمي قلبي بكلماتك الجافة:

"نعم في حاجة" فأجيبك: " مفيش كنت بس حابة أطمِّن عليك" فتجيبني: "كويس اقفلي عندي شغل".

لم تمنحني دقيقة واحدة من وقتك، تعاملني فيها برفق، فماذا حدث لذلك الحب الكبير بيننا؟ هل مات أم ألقت عليه السنين صدأها؟ لا أدري ما سر حالة التحوُّل التي انتابتك بعد زواجنا. هل مللت حبي أم مللتني؟

كان كلامها يخرج من فمها كسهام موجهة إلى عينيه التي ترقرقت بها دموع الندم.

فعاودت توجيه كلامها إليه مرة أخرى: "فإن كنت تعتبر ما يحويه هذا الكشكول خيانة، فهي مجرد خيانة على ورق، من قلب احترق بنار حبك، وإن كنت مازلت تصفني أنني خائنة وتريد هجري أو قتلي فقد هجرتني وقتلني منذ تزوجتني، ولكني كنت أحارب الموت على أمل أن تتغير، وتعود إليَّ من جديد، ولكن يبدو أنني كنت آمل بالمستحيل".

نزعت من يديه كشكولها، مخلفة وراءها جرح السنين. وبقي لها كشكولها الأزرق، ذلك الكشكول الذي كان السبب في تألقها على الساحة الأدبية، لم تكن تعلم قيمة ما يحويه ذلك الكشكول بين طياته، سوى رسائل كتبتها لحبيب تسبَّب في جرحها.

الحكاية الحادية عشر...

أحبك حتى الموت...

أمسك بيدها، صعدا الدرج سويًّا. استسلمت يدها ليده دون أن تشعر، ما إن بدت أصابعهما تتشابك حتى انتزعت يدها بقوة، كأنها استكثرت على نفسها لحظة دافئة، تركته دون أن تنظر وراءها، لتلمح على وجهه علامات الاندهاش أو الغضب. تركته وذهبت، لا تدري لماذا هربت؟

مضت بدموعها منهمرة تتساءل، تمسك بيدها، تعاتبها، لماذا تركتي يده بعد أن احتضنتك؟ لماذا بعدما أصبحتما يدًا واحدة انفصلتِ عنه؟ تعود لتلوم نفسها الخائفة دائمًا من كل شي، ولكن لا فائدة من ذلك. انتظرت أن يركض خلفها؛ ليسألها لماذا انتفضت عندما لمس يدها، لكنه لم يفعل. باتت وحدها تنظر إلى القمر، تشكي له همَّها.

استيقظت من نومها على رنين المنبه، أغلقته وجلست تتسائل هل كان حلمًا!!؟ آه ياربي، ماذا يعني هذا الحلم الغريب؟ هل يعني أننا سنرحل بلا عودة؟ أخذت الهواجس تطاردها، ذهبت لتغسل وجهها، وتشغل بالها بشيء آخر، وتترك تلك الهواجس اللعينة التي تكاد تكدِّر صفو يومها غير العادي، فهو يوم مناقشه رسالة الماجيستير التي أعدتها. أمسكت بهاتفها، أخذت تقلب رسائله، فتحت رسالته التي أرسلها لها أمس: "ليلة عيد الحب..." ابتسمت، وهي تقرأ ما كتب:

"إلى من أسعدت قلبي بحبها، إلى من خففت آلامي، وجففت دموعي، إلى أول من أحببت، وآخر من أحب. في هذا العيد، لم أجد شيئا أقدمه لك، فكل الأشياء أصبحت سواء، فلك حياتي يا ملاكي... أحبك"

لم تكن الرسالة كافية لتمحو أي هواجس تدور بداخلها، فتملكها الخوف أكثر، لكنها حاولت أن تبدو طبيعية قدر الإمكان، أعدت قهوتها، أوراقها، كتبت بعض الملاحظات، ارتشفت قهوتها بسرعة، أعدَّت مقالا سترسله في طريقها للجريدة التي تعمل بها، ودعتها أمها، ودعت لها قائلة أنها ستلحق بها هي ووالدها على الجامعة، وما إن سمعت صوت "كلاكس" سيارته تحت منزلها، ورنين تليفونها يستعجلها حتى لا تتأخر عن موعدها، حتى نزلت درجات السلم بلهفة، سلمت عليه، واحتضنت يده بقوة، ظلت يده محتضنة يدها سألها مندهشا: "مالك!؟"

قالت له: "عايزة إيدي تفضل حاضنة إيدك علطول"

نظر إليها بعينيه المبتسمتين، لكنها لمحت بها نظرة خوف واضطراب. هي تعرفه جيدًا، لقد أصبح كتابًا مفتوحًا ومفهومًا بالنسبة إليها، فهو صديقها، وحبيبها، وزوجها المنتظر بعد شهرين، فكيف لا تستطيع فهمه؟ سألته ما به، فهرب بعينيه بعيدًا عنها، رُبما رأى هو الآخر نفس الحلم. ليس ذلك بالغريب، فلطالما كان يتحدثان نفس الكلام في الوقت ذاته، ولطالما رأوا نفس الأحلام، فابتسم ليداري قلقله قائلا: "فرحان بحبيبتي".

ومضيا سويًّا، صعدت السيارة معه، وظلت ممسكة بيده بقوة. وصلا إلى مقر الجريدة، ونزلا من السيارة، ومازالت يدها ممسكة بيده لا تتركها. أكملا يومهما، ذهبا إلى الجامعة لحضور مناقشة الرسالة، جلسا أمام المنصة، مازالت يداهما متشابكة بقوة، ما إن أعلنت لجنة المناقشة قبول الرسالة، وحصولها على تقدير جيد جدًّا، انتفضا، احتضنها، وقبَّل جبينها، وقال لها: "النهاردة حاسس إني أنا اللي نجحت".

فردت مبتسمة: "إنتَ أنا".

ثم صعدت للمنصة، وشكرت كل من ساعدوها، وأهدته نجاحها؛ لأنه دائما سبب نجاحها، هَنَّأها الجميع، أمها، أبوها، أصدقاؤها، استأذنتهم جميعًا؛ لتحتفل بنجاحها مع الإنسان الذي قادها لهذا النجاح، وعندما تعود ستحتفل معهم. ودَّعا الجميع وخرجا سويًّا، وعدته أنها لن تدع يدها تخاصم يده، ووعدها بألَّا يترك يدها أبدًا.

صعدا السيارة سويًّا وأدار "الكاسيت" على أغنية لطالما أحباها كثيرًا، غنَّت فيروز وغنَّيا معها:

"نطرونا كتير، كتير ع موقف دارينا، لاعرفنا أساميهن لاعرفوا أسامينا، ع موقف دارينا، عالموقف ركاب وليل، وبنيه مهيوبي وشب يقلا صيف وليل وتقلوا مخطوبي يا نسمة خدينا، يا نسمة جبينا ع موقف دارينا، ع موقف دارينا، سيارة زغيرة، والليل، والغيرة، والعشاق اتنين، اتنين ماحدا عارف لوين، نطرونا كتير، كتير ع موقف دارينا"

وما إن انتهت الأغنية، حتى أفاقا على قدرهما، لم يستطع أن ينجو بها وبنفسه، من تلك السيارة الكبيرة المسرعة، التي أطاحت بسيارتهما، وحتى في تلك اللحظة، ظلت يدها ممسكة بيده إلى أن استردت وعيها بالمستشفى، لم تجد يده.

وجدت نفسها وحدها بدونه، سألت عنه فأجابوا أنه بغرفة العناية المركزة، طلبت منهم أن تراه، فذهبت له، وأمسكت بيده وقالت:

"وعدتني إن إيدك مش هتسيب إيدي، إوعى تخلف وعدك معايا، مش هعيش من غيرك، هضيع لو سبتني".

نظر إليها، وابتسم، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة : "عايزك دايما قوية، في وجودي وغيابي".

تبكي، لا تقوى على الكلام، لاتردد سوى: "لا تتركني وحدي".

قال كلمته الأخيرة: "أحبك".

بكت وظلت ممسكة بيده، لكنها خذلتها هذه المرة، وسقطت من يدها،

لقد تحقق حلمها بصورة أخرى لم تكن تتوقعها.

منذ تلك اللحظة بدأت الأيام تمر بطيئة، أصبحت كل الأيام متشابهة، لم تعد تشعر بأي رغبة في الحياة، فقد رحل أملها في الحياة، رحل وتركها وحيدة.

فقد كان حبها له حبًّا من نوع خاص، كانت تخاف عليه من أي شيء، ومن كل شيء، من دور الأنفلوانزا البسيط، أو من صداع آلم رأسه، من أي تعب خفيف شعر به. كان إذا مرض ظلت تبكي، وتدعو الله في صلواتها أن يشفيه، كانت تقول: "يارب، إنه النفس الذي أتنفس به في هذه الحياه، لا تحرمني منه يارب، يارب أسلب روحي قبل روحه، او توفنا معًا حتى لا أعيش معذبة بدونه ".

لقد كان لها الحياة، والأمل، والحب، والبسمة التي تداعب شفتيها، وشمسها المشرقة دائمًا، وقمرها الذي ينير ظلامها ويهديها إن ضلت الطريق. كان هو أيضًا يحبها حبًّا شديدًا، فكانت دائما قريبة منه، لم يكن له أخ أو أخت، فكانت أخته الحنونة دائمًا عليه، لم يكن له صديق يثق به، فكانت صديقته، وحبيبته، وأمه، وطفلته المدللة، وتلميذته النجيبة التي تتعلم على يده، فكانت كل شيء له، وكان هو الآخر كل شيء لها، والآن رحل عنها، رحل دون أن يكمل القصة. تركها بلا نهاية، فلم تكن تتوقع، ولا تزال لا تصدق أن تنتهي القصة بموته هو. مضت أيامها بطيئة، حزينة، كوابيس الحادث لا تفارقها، وصورته لا تفارق خيالها، وصوته مازال يرن بأذنها. وفي يوم من تلك الأيام الحزينة الكئيبة، رأته في منامها، كما كان مبتسمًا. جاء وراءها، وهي جالسة وحيدة، حزينة، شاردة، اقترب منها وقال:

"لا تحزني حبيبتي، فالموت لم يكن باختياري، لو كانت حياتي بيدي لعشت طوال العمر لكِ يا ملاكي، لا تحزني حبيبتي، يؤلمني حزنك عليَّ، أريحيني يا ملاكي، فلم أعش يومًا معذبًا بهواكِ، فلا تعذبيني الآن بهواكِ، تفوقي وانجحي، أحبي بعدي وتزوجي، فالموت قدري، فلتعيشي يا ملاكي"

مرت سنوات ليست بالقليلة ولا بالكثيرة، قررت أن تتعامل مع الحياة، وأن تحقق له أمله فيها، وكأنه لم يرحل عنها، تفوقت ونجحت كثيرًا، ورغم كل ذلك لم تكن تشعر بمذاق الفرح والنجاح بدونه، فكانت تتمنى أن تصل لنجاحها وهو بجوارها، بل كان بجوارها فعلا، بقلبها دائمًا، فكلما ضاقت بها الدنيا، وأصابتها لحظة إحباط، وجدته بجوارها بكلماته التي ما زال يتردَّد صداها بآذانها: "أنا معاكِ متخافيش"

وتذكرت حينما سألته ذات مرة: "إحنا ممكن نسيب بعض؟"

فأجابها صدى صوته، وكأنه يقف بجوارها في نفس الغرفة: "مش هنسيب بعض؛ عشان ملناش غير بعض...".

شكر

كثيرًا ما تقف في حياتنا عثرات تعرقل مسار خطواتنا، فما أجمل حينها أن نجد بجوارنا أناسًا يمدون لنا يد العون؛ كي نواصل الطريق.

فشكرًا لكل من وقف بجانبي...

شكرًا لأول من شجعتني أن أمسك القلم، وأخط حروفي على الورق، شكرًا إليكِ أمي...

شكرًا لأبي الذي ساندني كثيرًا...

شكرًا لتوأمتي الجميلة إيناس حليم، حلم حلمناه سويًا، والآن أصبح حقيقة، أتمنى أن يتوَّج بالنجاح، شكرًا لدعمك لي دائمًا، صديقتي العزيزة...

شكر خاص لجميع أصدقائي الأعزاء ..لكم كل الحب والتقدير والاحترام

لبنى غانم

عن الكاتبات..

إيناس حليم/

- من مواليد برج السرطان عام 1983، حاصلة على بكالريوس هندسة قسم مدني، وتندهش كثيرًا كلما تذكرت ذلك. معظم كتاباتها في الشتاء، ومعظم حماقاتها في الصيف. معاناتها الحقيقية تكمن في البحث عن حذاء مقاس 36. تحب الباذنجان حُبًا جَمًا، وتُصر على أنَّ "اسكندرية أحلى بلد في الدنيا".

- أحد أعضاء ورشة إطلالة السكندرية لكتابة القصة القصيرة.

- لها أعمال أدبية منشورة في بعض المجلات الورقية والالكترونية.

- مساحتها الخاصة:

Http://enashaleem.blogspot.com/

لبنى أحمد غانم/

- من مواليد برج السرطان 1988، حاصلة على ليسانس آداب_إعلام_شعبة إذاعة وتلفزيون_جامعة المنصورة ٢٠٠٩.

- حصلت على الشهادة التمهيدية للماجستير من كلية الإعلام –جامعة القاهرة ٢٠١٠

- طموحة إلى أبعد الحدود، حالمة إلى ما أبعد من الحدود، في الغالب أن طموحها هو سبب نحافتها، أما عن رومانسيتها، فهي كنزها الخاص الذي تحتفظ به في برطمان مربى المشمش، هي وحدها من يعرف مكانه.

- لها أعمال أدبية منشورة في بعض المجلات الورقية والالكترونية.

- مساحتها الخاصة:

Http://thebestimes.blogspot.com/

المحتويات

*حكايات إيناس

١- كوخٌ وبسمة.. وقدح شاي تعطر بأنفاسه..٧
٢- احتفال بحذاء وردي اللون مقاسه "zero"...................................١٠
٣- نصف وجه..١٣
٤- أن تكون حرًا...١٧
٥- لؤلؤة سوداء..٢٠
٦- وثبًا نحو الأحلام..٢٢
٧- رزنامة..٢٦
٨- على طرف المفرش...٢٨
٩- صباحٌ مُكرر...٣٠
١٠- كيفك إنت..٣٣
١١- لاڤندر...٣٦
١٢- سقف منخفض...٣٩
١٣- هامش حالم...٤٢

*حكايات لبنى

١- رسائل.. ٤٦
٢- أكره نفسي التي تحبك.. ٤٩
٣- غريقًا ببراثن السحر.. ٥٢
٤- ورقة خريف... ٥٦
٥- حبك وحده لا يكفيني ٥٩
٦- أحبني لتعرف من أنا (رفيقة القمر)... ٦٢
٧- دعني أحترمك أولاً.. ٦٥
٨- لا تعرفه.. ولا يعرفها.. ٦٩
٩- طيبة، بدرجة ملاك... ٧٢
١٠- الكشكول الأزرق... ٧٥
١١- أحبك حتى الموت... ٧٨